

محاضرات و دروس في

الحياة العلمية و الثقافية
في غرب إفريقيا و مملكة مالي الإسلامية

محاضرات خاصة بطلبة الماجستير تاريخ
تخصص إفريقيا جنوب الصحراء

إعداد الدكتور: نور الدين شعباني

المحور الأول

الحواضر الكبرى في غرب إفريقيا

تمهيد:

إن الاطار الجغرافي المعني هنا بالدراسة هو المنطقة الممتدة من الحواف الجنوبية للصحراء الى غاية منطقة السفانا جنوبا، و من المحيط الاطلسي الى غاية بحيرة تشاد شرقا، اما زمنيا فنخص بالدراسة الفترة الممتدة من القرن 11 الى غاية القرن 16م، فلقد عرفت هذه المنطقة بعض المراكز التاريخية و الحضارية التي كان لها تأثير كبير في تاريخ المنطقة، وذلك بسبب احتضانها لمراكز سياسية و عواصم ممالك عريقة و امبراطوريات قوية، بالاضافة الى تحولها الى مراكز اشعاع فكري و ثقافي.

عرفت هذه المنطقة الإسلام منذ القرن الحادي عشر للميلاد/5هـجري، عن طريق التجار الاباضيون أولا، حيث استقر التجار الاباضيون و حتى صفرىو سجلماسة في أهم المراكز التجارية في بلاد السودان من اجل جلب ذهب السودان المجلوب من الأدغال الإفريقية، فاحتكوا بكبار تجار إفريقيا الغربية و ملوكها، و تمكنوا من فرض انفسهم في تلك المجتمعات بفضل حسن سيرتهم و صدقهم و أمانتهم و حسن تدييرهم حتى ان البكري خلال القرن العاشر يذكر ان ملك مالي الوثني كان يستعين بهم في تديير شؤون دولته، فعين منهم الكتاب و الأمناء و الوزراء، كما خصص لهم مدينة بأكملها للجلالية الإسلامية بعاصمته تضم اثني عشر مسجدا فيه الراتبون و القراء و الأئمة و المؤذنون و حملة العلم⁽¹⁾.

و تمكن هؤلاء التجار إذا من إقامة جاليات إسلامية عملت على نشر الإسلام في تلك الأراضي الإفريقية، فتحولت تلك المراكز التجارية مع مرور الوقت إلى حواضر علمية بسبب تجمع العلماء و

(1) البكري (ابو عبيد) ، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، مصر، د ت، ص 175.

الفقهاء، ثم بناء المساجد التي تحولت إلى مراكز تعليمية و جامعات إسلامية و مراكز إشعاع للعلم و الثقافة⁽¹⁾.

أولاً: أهم الحواضر التاريخية و العلمية في غرب إفريقيا:

أ. الحواضر لغة:

ان كلمة حواضر لغة هو اسم جمع مفردة حاضرة، و تعني القوم الحضور، فنقول حضر البدوي: أقام واستقر فلم يعد يترحل. و بهذا فهي تعني مكان تجمع السكان الحضرة أي عكس البادية، و هي بالمعنى الحديث تعني المدينة.

فالحواضر everywhere التاريخية الافريقية هي تلك المدن الو التجمعات السكانية التي احتضنت في تاريخها مراكز سياسية و تجارية و ثقافية، مما جعلها مراكز اشعاع للعلم و الثقافة في غرب افريقيا.

ب. اهم الحواضر:

1. تنبكتو:

تعد مدينة تنبكتو حديثة النشأة مقارنة بغيرها من المراكز الأخرى، إذ يعود بناؤها إلى أواخر القرن الخامس للهجرة/ 11م، على يد قبائل التوارق المعروفين باسم (مقشرن)²، الذين بنوها في مكان يبعد بتسعة أميال عن نهر النيجر،³. ولقد اصبحت المدينة بفضل موقعها المميز تستقطب التجار والعلماء وأصحاب الأموال من مصر، و فزان، و غدامس، و توات، و درعة، و فاس، و غيرها⁴. فبعد أن كانت في البداية مجرد مخيم للشقاء قرب النيجر، تطورت بعد ذلك كمركز تجاري، و عوضت ولاتة التي كانت تلعب هذا الدور قبلها، حيث كان الفضل للملك منسا موسى في تحويلها من مجرد مخيم

(1) قداح نعيم، افريقيا الغربية في ظل الإسلام، مديرية التاليف و الترجمة لوزارة الثقافة و الارشاد القومي، مصر، د ت، ص 135.

(2) السعدي (عبد الرحمان)، تاريخ السودان. طبعة هوداس، باريس 1964م، ص 20.

(3) البستاني (بطرس)، دائرة المعارف البستاني. بيروت، 1886 مج 6، مادة تنبكتو.

(4) السعدي، نفس المصدر، ص 21.

بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة 11 / م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14 م⁽¹⁾ عندما قرر منسا موسى الى اعادة تهيئتها فأصبحت بفضل أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك،⁽²⁾ كما عرفت توافد السودانيين من كل جنس، فتكونت جالية من التجار الذين طلبوا الحماية من زعماء مالي⁽³⁾، فأصبحت على يد منسا موسى مدينة متطورة، و عين عليها دار الإمارة، بعد أن عمرها وجعل فيها الدكاكين والصناعات، وجلب إليها البنائين، حيث يعد المؤسس الحقيقي للمدينة و ذلك عام 610هـ / 1213م⁽⁴⁾.

و لما ضمها الإسقيون الى مملكة سنغاي، اكتسبت مكانة تجارية أكبر و ذلك بفضل موقعها الممتاز في منحى نهر النيجر، فأصبحت أقرب محطة سودانية للقوافل القادمة من المغرب، كما أن موقعها على النيجر جعلها حلقة اتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان، وخاصة تجارة الذهب والملح⁽⁵⁾.

كما احتضنت مكانة علمية و ثقافية بفضل السمعة التي نالتها جامعاتها مثل جامع جنجربير و جامع سيدي يحيى التادلسي، و التي كانت تستقطب طلبة العلم و العلماء من كل حذب و صوب، و عرفت نهضة علمية قادتها بعض البيوتات العلمية مثل عائلة اقيت وعائلة بغيغ و عائلة اندغمحمد، فأنجبت لنا عدة مؤلفات و مؤلفين أشهرهم احمد بابا التبكتي و عبد الرحمان السعدي،

(1) السعدي، نفس المصدر ، ص . 22.

(2) **Cornevin(Robert et Mariane)**, Histoire de l'Afrique, des origines à la deuxième guerre mondiale, 4ème éditions. Petite bibliothèque Payot, Paris, 1964. p164

(3) **Canal (jeans suret)** , Afrique Noire. 3ème édition, éditions sociales, Paris, 1968, P181.

(4) **حسن الوزان**، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، طبعة ثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983 م. ص 165.

(5) **الشيخ** (أمين عوض الله)، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتي نهاية ق16م، ص 82.

و محمود كعتي. حتى اصبحت أكثر شهرة من العاصمة جاو، و هو ما جعل المسكتشفون الاورييون يتنافسون حول اكتشاف هذه المدينة الى ان اكتشفها روني كايي الفرنسي سنة 1828م و اطلق عليها اسم تنبكتو العجيبة.

2. جني:

يطلق عليها التجار الأفارقة اسم كناوة، بينما يسميها أهلها بجني، وهي أسم مدينة ومملكة في نفس الوقت، تبعد عن ولاته بخمسمائة ميل في الصحراء، وتمتد على طول نهر النيجر على مسافة مائتين وخمسين ميلا، ولها جزء على المحيط حيث يصب نهر النيجر⁽¹⁾. لقد كانت مدينة جني في البداية تابعة لمملكة مالي ثم ضمتها مملكة سنغاي الى حاضرتها في عهد الملك سني علي، بعد حرب مع جيش مالي⁽²⁾.

ودخل أهل جني الإسلام خلال نهاية القرن السادس للهجرة/ 12م، وكان اسم السلطان الذي أسلم وأسلم أهل جني بإسلامه، هو (كنبر) الذي يحكي بأنه عندما عزم على دخول الإسلام أمر بجمع أربعة آلاف ومائتي عالم، وأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعو الله تعالي بثلاث دعوات لتلك المدينة وهي:

1. « كل من هرب إليها و وجد في وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة ويسرا.
2. أن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها.
3. أن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملكوها فيها فيبيعوها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها»⁽³⁾.

وبالفعل فقد أصبحت منذ القرن السابع للهجرة/ 13م، مركزا تجاريا مهما بفضل موقعها في ملتقى الطرق، بالإضافة إلى إحاطة المياه بها مما يجميها من غارات المعتدي، وبدأ أهلها يحققون أرباحا هائلة من تجارة القماش والنحاس والسلاح. ففيها كان يلتقي أرباب الملح القادمون من تاغزة، وأرباب

(1) حسن الوزان، المصدر السابق، ص 162.

(2) قندوز قويدر، الدولار الحضاري لمدينة جني ما بين القرنين 8 و14هـ/ 10 و 16م، مذكرة لنيل شهادة ماستر في التاريخ تخصص دراسات افريقية، جامعة الجليلي بونعامة خميس مكليانة، السنة الجامعية 2016/2017م، ص 31.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص 12.

الذهب من أودغست، فاستقطبت إليها التجار من كل الآفاق، حيث كانت أسواقها تدوم طول أيام الأسبوع، وكانت تستعمل فيها حتي القوارب لنقل الملح وسلع أخرى من تنبكتو إلى جني، وبالتالي أصبحت جني حلقة وصل بين تجارة الذهب وتجارة الملح¹.

3. غاو:

تناولت المصادر العربية اسم هذه المدينة باختلاف كبير، فجددها كوكو عند الإدريسي وحسن الوزن، ويذكرها المهلبي بكواكو². وعلى كل حال فإن مدينة جاو تعد من أشهر مدن السودان، فهي تقع على ضفة نهر النيجر من جهة الشرق³، وازدادت شهرة عندما أصبحت عاصمة مملكة سنغاي. فهي كانت تمثل بالنسبة لشعب سنغاي، ما كانت تمثله تنبكتو لغيرها من دول السودان الغربي، من نواحي الثقافة والتجارة والإدارة الحكومية⁴. وقد اكتسبت تلك الأهمية بوجودها في أحد الطرق التي تربط مصر بغانة، وهو ما جعلها تشارك في ذلك النشاط التجاري الذي جلب لها الرفاهية. لكن ذلك الطريق الذي أهمل خلال القرن الرابع للهجرة / 10م، جعل جاو توجه تجارتها إلى الشمال من خلال تادمكة وتوات باتجاه المغرب، ومن خلال الهقار وغات باتجاه مصر⁵.

4. ولاية:

(1) الشيخ (أمين عوض الله)، المرجع السابق، ص 84.

(2) يقول المهلبي: « بأن كاوكاو هو اسم شعب واسم مدينة سودانية في نفس الوقت »

Mauny (R) : Recueil des Sources Arabes. P 77.

(3) الإدريسي (أبو عبد الله الشريف)، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس. مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: إسماعيل العربي. الطبعة الأولى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م، ص 44 -، ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى المغربي): كتاب الجغرافيا. تحقيق إسماعيل العربي. الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982م، ص 93.

(4) دافيد سون (بازيل) : إفريقيا تكتشف من جديد. ترجمة، نبيل بدر وسعد زغلول، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، د.ت، ص 48.

(5) Mauny (Raymond), Les Siècles obscurs de L'Afrique noire. Librairie Fayard. 1970. P 167.

يصنفها بن بطوطة، الذي يذكرها بايوالاتن، بأنها أول عمالة السودان، وأنها تبعد عن سجلماسة بمسيرة شهرين¹. ولعل هذا الموقع هو الذي جعلها مركزا تجاريا استقطب اهتمام التجار، ذلك أن تجار غانة الملقين ب(الونغارة)، هم من أسسها في مكان يدعي (بيرو)، وذلك عام 621هـ / 1224م، مباشرة بعد نهب مدينة كومي صالح².

وقد تم اختيار هذا المكان لأغراض أمنية، فوجودها على الحدود بين السفانا³ والصحراء الكبرى، وعلى بعد شهرين من سجلماسة، جعلها المدينة السودانية الأقرب من بلاد المغرب، كما جعلها هذا الموقع بمثابة مفترق طرق كثيرا ما يعبره التجار، وأهل السودان الذاهبون إلى الحج⁴.

فولاته إذن تعد المحطة النهائية لعابري الصحراء، حيث عوضت الدور الذي كانت تلعبه أودغست المندثرة، والمسيطر على موقعها من طرف عرب المعقل الذين أصبحوا يشكلون خطرا على القوافل⁵. وعندما زار ابن بطوطة مدينة ولاته، وأقام بها خمسين يوما، كان زعيمها (فريا حسين) تابعا لسلطان مالي، والمدينة تابعة لإمبراطورية مالي، وكانت تحتوي على فنادق، ويتكفل بضيافة التجار المشرف الذي يدعى (منشا نجو)⁶.

وبقيت على هذا الوضع إلى غاية الاستيلاء عليها من طرف الطوارق عام 838هـ / 1433م، الذين فضلوا تطوير تنبكتو على حسابها⁷، حتى إذا زارها حسن الوزان في بداية القرن العاشر للهجرة/

(1) المصدر السابق، ص 676.

(2) **Cuoq Joseph** , Histoire de L'islamisation de L'Afrique de L'ouest des origines à la Fin du XVIème Siècle, Librairie orientaliste Paul Gauthner, Paris- 1984., p 90.

(3) **السفانا** هو إقليم نباتي، تنبت فيه الحشائش الكثيفة العالية، كما تنمو فيه الشجيرات القصيرة والأشجار الباسقة مكونة غابات مترامية الأطراف، لكنها أقل كثافة من الغابات الاستوائية. (روكز (يوسف): إفريقيا السوداء، سياسة وحضارة. الطبعة الثانية، 1986، ص 18.

(4) Cuoq (J): Op. cit, P 91.

(5) ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المتوفى سنة 779هـ)، تحفة النظار و غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المعروف بالرحلة). دار صادر، بيروت، لبنان، 1992م، ص 676.

(6) نفسه، ص 676.

(7) Cuoq (joseph) , Op.cit, P 91.

16م، كانت مملكة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان، وليس لها من الأماكن المسكونة إلا ثلاثة قرى كبيرة وأكواخ متفرقة بين حدائق النخل¹.

5. تاكدا:

اشتهرت تاكدا بإنتاج النحاس، الذي يستخرج من مناجمها فيحملون إلى بلاد السودان، بعدما يسبك على شكل قضبان في طول شبر ونصف². ولعل هذا المعدن هو الذي منح تاكدا أهمية تجارية، بالإضافة إلى موقعها في الطريق بين توات وغانة. فهي تبعد عن توات بسبعين يوما، فكانت القوافل تسير منها باتجاه بلاد بورنو حيث تجلب الجوارى والعبيد والثياب وتصدرها إلى المغرب³. كما كان أهل تاكدا يسافرون سنويا إلى مصر، ويجلبون منها الثياب الحسنة وغيرها، وهو ما انعكس بالرفاهية وسعة الحال على أهلها⁴.

(1) المصدر السابق، ج2، ص 162.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 697.

(3) الشيخ (أمين عوض الله)، المرجع السابق، ص 84.

(4) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 697.

المحور الثاني

مظاهر الحياة الثقافية و العلمية في الحواضر الإفريقية:

1. مؤسسات التعليم:

بعد انتشار الإسلام في غرب إفريقيا و قيام دول سودانية اسلامية مثل غانة و مالي و سنغاي، تحولت تلك المراكز التجارية و السياسية إلى مراكز علمية بعدما اقيمت بها مساجد تحولت إلى جامعات و مراكز إشعاع علمي، حيث استقطبت العلماء و الطلبة من كل بلاد السودان، حيث ذكر السعدي انه بعدما اسلم سلطان جني الذي يدعى كبر حضر إسلامه 4200 عالم كانوا موجودين في مدينة جني⁽¹⁾، و هو رقم كبير يدل على أهمية المدينة من الناحية العلمية. و لو أن المقصود بالعالم عند السعدي هو معلم الصبيان، أي حتى معلم في الكتاتيب كان يطلق عليه اسم عالم⁽²⁾.

إن هذا العدد من المعلمين و القراء المنتشرين في أرياف و مدن مملكة جني يدل أيضا على انتشار التعليم و الاهتمام به خاصة في عهد الاسقيين و هو الفترة التي كان يقصدها السعدي بالدراسة. فالتعليم كان موجودا حتى في الفترات السابقة أي فترة حكم سوندياتا كيتا⁽³⁾، خلال القرن 13م، أين كان يتم عن طريق الكلمة فقط، أي عن طريق الرواية الشفوية التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وتتوارثها الأجيال وتلقن عن طريقها العلوم و المعارف⁽⁴⁾.

لكن مع ظهور الممالك السودانية الإسلامية، و ظهور ذلك الجيل من الملوك الحجاج و احتكاكهم بالحضارة الإسلامية في المغرب و المشرق، بدؤوا يتعرفون على الطرق التعليمية الجديدة،

(1) السعدي(عبد الرحمان)، تاريخ السودان، طبعة هوداس، باريس، 1964، ص12.

(2) عز الدين عمرو موسى، دراسات إسلامية غرب افريقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م، طبعة ثانية، ص115.

(3) إذا اخذنا برواية كل من ابن خلدون و دولافوس فسوندياتا يكون قد عاش بين 1190 و 1262م، ذلك أن دولافوس يقول بانه ولد سنة 1190، و انه تولى الحكم سنة 1235 أي بعد انتصاره على الصوصو في معركة كيرينا، بينما يقول ابن خلدون انه حكم 27 سنة، و بهذا تكون فترة حكمه بين 1190 و 1262م.

(6) Devey (Muriel) , La Guinée ,Editions Karthala, Paris, 2009.p285.

وأخذوا ينقلونها إلى إمبراطوريتهم التي كانت تنهياً لأن تكون إحدى أقطاب الثقافة العربية الإسلامية⁽¹⁾.

وكان التعليم في البداية يقتصر في أول الأمر على الأساتذة العرب والبربر القادمين من المغرب الإسلامي، وبعد مدة تكونت طبقة من المعلمين السودانيين الذين تخرجوا من مختلف المدارس المشرقية والمغربية، وكان دورهم في البداية يقتصر على تعليم الملوك القرآن وبعض شرائع الإسلام واللغة العربية، وكانوا يتلقون مكافآت على ذلك⁽²⁾، ثم تطور التعليم ليشمل علوم أخرى، و مستويات اعلى.

و كانت مؤسسات التعليم في حواضر غرب إفريقيا تمتاز بظاهرة عامة و هي ارتباطها الشديد بالدين، حيث كانت في البداية المدارس مرتبطة بالمساجد و ملحقة بها، فالي جانب كل مسجد كان هناك غرفة او غرفتان لتعليم الأولاد، و هناك أمكنة أخرى ليبيت فيها الطلاب القادمين من البلاد البعيدة، و هناك مساجد خصصت كلها لتلقي العلم كانت تعقد فيها حلقات لمختلف العلوم الشرعية³.

2. مراحل التعليم:

مع ظهور الحواضر الكبرى في عهد امبراطورية مالي و سنغاي ظهرت معه المؤسسات التعليمية الكبرى ذات المستوى العالي مثل جامع جنجربير و سيدي يحي في تنبكتو و جامع سنكاري في مدينة جني، حيث كانت تمر بمراحل تعليمية تبدأ من الابتدائية إلى غاية المرحلة العليا التي يتخرج منها الطالب عالماً.

أ. مرحلة التعليم الابتدائي (الكتاتيب):

قبل الحديث عن هذه المرحلة، تجب الإشارة إلى أنّ عملية التعليم تختلف جزئياً بين الأقطار الإسلامية، وقد أوضح العلامة ابن خلدون ذلك في مقدمته عندما تحدث عن تعليم الأولاد واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية، حيث قال: "إنّ تعليم الأولاد للقرآن الكريم شعار من شعائر الدين،

(1) نور الدين شعباني، دور عائلة كيتا في مملكة مالي الإسلامية و علاقاتها الخارجية بين القرنين 5 و10 هجريين، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2012، 2013م، ص 279.

(2) قداح نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية. الشركة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة ثانية، 1975م، ص 160.

(3) نفسه، ص ص 158 . 159.

أخذ به أهل الملة، ورجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق إلى القلوب من رسوخ في الإيمان وعقائده من آيات القرآن، وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات... واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للأولاد باختلافهم، باعتبار ما ينشأ من ذلك التعليم من الملكات⁽¹⁾.

وتعد المرحلة الابتدائية أساسية للطلاب، حيث تستقبل الأطفال منذ نعومة أظافرهم، وتلقنهم تهاديا دينيا سليما يتزودون فيها بمعرفة مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظ لهم القرآن الكريم وتدرس لهم اللغة العربية حتى يتمكنون من كتابتها، كما كانوا يدرسون بعض المواد العلمية⁽²⁾، وعادة ما تضم هذه المرحلة الطلاب صغار السن، بداية من سن الخامسة حتى مرحلة الصبا، وكانت مدة بقاء الطالب فيها تراوح بين الخمسة والستة أعوام في المتوسط؛ يحفظ فيها أجزاء من القرآن الكريم، ويتقن فن الكتابة والخط، ويلمّ بمبادئ اللغة العربية.. وكل ذلك يتم عن طريق الكتابة على الألواح الخشبية. إنّ هذه المرحلة من التعليم تقوم بها الكتاتيب، وقد اختلفت مسمياتها في إفريقيا الغربية باختلاف قبائلها؛ فقبيلة الولوف تطلق عليها اسم “دارا”، وقبائل بلاد شنقيط (موريتانيا) يعرفونها بـ “المحطرة، أما قبائل التكرور فيدعونها “ديا لجانتي”، في حين تسمى قبائل أخرى معلم الكتاتيب “معالم”، وهو تحريف للفظ معلم⁽³⁾.

أما نظام التعليم فقد كان يتميز بالصرامة الشديدة، وكثافة البرامج، حيث كان في جني مثلا يخرج المعلم من بيته إلى المسجد في منتصف الليل، فيبدأ الحصة ويجلس حوله الطلبة، فيتابعون الدرس إلى غاية صلاة الصبح، وعند نهاية الصلاة يعودون إلى أماكنهم إلى غاية منتصف النهار أين يعود المعلم إلى بيته، ثم يعودون إلى الدراسة بعد صلاة الظهر، وتنتهي الحصة مع صلاة العصر⁽⁴⁾. كما كان

(1) عبد الله عيسى، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16، مجلة البيان الإلكترونية، العدد 228، موقع الكتروني: <http://www.albayan.co.uk> تاريخ الاطلاع عليه: يوم الخميس 22 جمادى الأول 1439 هـ - الموافق لـ 2018/02/08م

(2) باري (محمد فاضل) وكريديّة (سعيد إبراهيم)، المسلمون في غرب إفريقيا، تاريخ وحضارة. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م، طبعة أولى، ص 105 .

(3) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الثاني، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، ص 263.

(4) Cuoq (Joseph), Op.Cit. p91.

الآباء يحرصون على حفظ أبنائهم للقرآن وكانوا يعاقبون أبناءهم عليها أشد العقاب كما يخبرنا بذلك ابن بطوطة⁽¹⁾. وكان الفقيه الحاج التمبكتي، الذي تولى القضاء بتمبكتو في أواخر عهد دولة مالي كان قد أصدر أمر بقراءة نصف حزب من القرآن بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري⁽²⁾.

ب. مرحلة التعليم الثانوي:

فكان يتخصص فيها الطالب لدراسة علوم القرآن وتفسيره، بالإضافة إلى دراسة مواد أخرى مثل الفقه والحديث والفكر الإسلامي والأخلاق الإسلامية والأدب العربي، كما كانوا يدرسون الطب والجراحة وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغات والتجارة⁽³⁾. بعد ذلك يتدرج الطلبة في مناهج أخرى لتشمل حلقات درس وندوات تجرّي فيها مناقشات فقهية، وفلسفية حيث يُدرّس لهم منطق أرسطو ومقامات الحريري⁽⁴⁾. كما كانوا يدرسون الفقه المالكي لخليل بن إسحاق⁽⁵⁾.

وكانت دراسة النحو تقوم على الاستنتاج، إذ يقرؤون النص الأدبي ويناقشونه من خلال بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة⁽⁶⁾. بعد ذلك تأتي المراحل العليا من التدريس في تمبكتو وفاس والقاهرة وهو ما يعادل التعليم الجامعي، حيث يتم التدريس في هذه المرحلة على أساتذة مرموقين في مجال التعليم الإسلامي، هنا يصبح المنهاج أكثر تخصصاً وعمقاً في البحث، حيث كان الأستاذ يطرح على الطلبة مسائل تتعلق بشتى المواضيع، وكان على الطالب تقديم حلول لها مدافعاً عن رأيه بالحجج والبراهين وذلك أمام عدد من زملائه الطلبة وأساتذته، كما يتدربون خلال هذه المرحلة على تزكية النفس ليكونوا نموذجاً صالحاً للأجيال المقبلة. أما التخرج فيتم بعد التأكد من تفوق الطالب في المعرفة والأخلاق الإسلاميين، فيعطى بعدها عمامة مزينة بالعقد والدوائر التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، أما العمامة فكانت ترمز إلى الحد الفاصل بين العلم والحكمة والمعرفة والخلق الحسن⁽⁷⁾.

(1) انظر المصدر السابق، ص 691.

(2) البرتلي الولاقي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة أولى، 1981م، ص 88. - السعدي، المصدر السابق، ص 27.

(4) باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد ابراهيم)، المرجع السابق، ص 105

(5) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 161.

(5) Cuoq Joseph ,Op.Cit. p126.

(6) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 161.

(7) باري(محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم)، المرجع السابق، ص 105.

ج. مرحلة التعليم الجامعي (او العالي):

تختلف هذه المرحلة كثيراً عن مرحلة التعليم السابقة لها، فهي تعادل ما يُطلق عليه في يومنا هذا المرحلة الجامعية، و الدراسة في هذه المرحلة تتميز بالتعمق في القضايا، والخوض في المسائل التفصيلية والشروح الدقيقة التي ضمتها بعض أمهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون في ذلك الوقت. ومن أشهر المساجد التي اهتمت بالمرحلة العالية: مسجد سنكري. وتحدثنا بعض المصادر التاريخية أنَّ الأسكيا الحاج محمد كان يخصص أوقافاً لتنفق على الطلاب المتفرغين للعلم والدراسة⁽¹⁾.

و كانت تتم هذه المرحلة في جوامع عديدة منها جوامع تمبكتو التي كانت ذات شهرة كبيرة وخاصة مسجدها الكبير الذي يعد أقدمها وأكبرها، وإن كنا لا نعرف تاريخ تشييده على وجه التحديد، لكن الأكيد هو أن هناك مسجد أقيم فوق موقعه خلال القرن السابع للهجرة/13م، والراجح أن بناءه لأول مرة كان في مطلع القرن السادس للهجرة /12م على وجه التقريب، أي في الفترة التي وجدت فيها مدينة تمبكتو واستقرار المسلمين فيها، وجدده فيما بعد منسا موسى عن عودته من الحج⁽²⁾.

وكان نظام التعليم في تمبكتو يتميز بمستوى عال لا يقل عن الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي أو غيره، فكانت تعقد فيه حلقات العلم يتشاور فيها الأئمة والأساتذة والعلماء فيما بينهم بين أروقة الجامعة لمعالجة المسائل التي ترسل إلى السلطات الحكومية للتقيد بها.⁽³⁾ أما الكتب المتداولة لدراسة بهذه الجمعة فهي نفسها المتداولة في الجامعات الإسلامية الكبرى مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، مدونة القاضي سحنون، مختصر ابن الحاجب الفرعي، تهذيب البرادعي، جمع الجوامع القرطبية، جامع المعيار وهي كلها في الفقه المالكي، بالإضافة إلى ألفية بن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، ألفية السيوطي، صحيح مسلم والبخاري، سيرة بن هشام وتفسير الجلالين، وغيرها.⁽⁴⁾

(1) عبد الله عيسى، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16، مرجع سابق.

(2) معتز ياسين، جوامع تمبكتو في مالي. مقال صدر في مجلة الوعي الإسلامي، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد 523.

(3) باري (محمد فاضل) وكريديفة (سعيد إبراهيم)، المرجع السابق، ص 105 .

(4) معتز ياسين، المرجع السابق.

وعموما فقد كان مستوى التعليم عال جدا في جامعة تمبكتو إلى درجة أن عبد الرحمان التيمي الذي جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى، لما سكن تمبكتو وجدها تعج بالفقهاء السودانيين، ولما رأى تفوقهم عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تمبكتو فاستقر فيها⁽¹⁾.

كما انتهجت جامعة تمبكتو سياسة تقوم على التبادل العلمي بينها وبين الجامعات والمعاهد في البلدان الإسلامية الأخرى في المغرب والأندلس والصحراء الكبرى، ولما كانت معاهد المغرب أعرق منها فقد حرص ملوك مالي على إرسال طلبتهم إليها، حيث قام منسا موسى بإرسال العالم كاتب موسى الذي كان إماما ومدرسا بجامع تمبكتو إلى فاس ليتلقى المزيد من العلوم الإسلامية وذلك بأمر من السلطان الحاج منسا موسى⁽²⁾.

عندما اشتهرت هذه المعاهد وفد عليها كثير من الطلبة من بقاع شتى من السودان الغربي لتلقي العلم على مشايخها ومنهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، ومن إقليم ودان وفد عليهم سيدي أحمد الغزالي بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي السوداني الذي تتلمذ على يد والد أحمد بابا التمبكتي⁽³⁾. وعندما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان التقى عددا من علماء المغرب ومصر المقيمين بمالي، منهم محمد بن الفقيه الجازولي، وشمس الدين ابن نقوش المصري، وعلي الزودي المراكشي الذي قال عنه بأنه كان من الطلبة⁽⁴⁾.

كما جذبت جامعة تمبكتو بعض علماء الأندلس أمثال علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الوادي آشي (المتوفى عام 724 هـ / 1323م) وهو والد ابن الملقن التكروري (توفي 804 هـ / 1401م) صاحب كتاب طبقات الأولياء، وقد مارس التدريس لمادة اللغة العربية قبل أن يرحل إلى القاهرة⁽⁵⁾. وهناك بعثة تعليمية انطلقت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو كانت تظم

(1) البرتلي الولاتي، فتح الشكور، ص 176.

(2) السعدي، المصدر السابق، ص 57. ، Yattara el Mouloud ,Op.Cit .

(3) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج في تطريز الدباج، إشراف و تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م، جزءان، ص 608.

(4) المصدر السابق، ص 681 .

(5) معتز ياسين، المرجع السابق.

طلبة من الونغارة (لذلك سميت بالبعثة الونغارية) و كانت تضم ركائز معاهد تمبكتو، فأخذ العلماء التمبركتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو أمثال الفقيه مخلوف البلبالي، والتاذخني، ومنهم من أسس معاهد تعليمية في هذه المنطقة، مثل معهد الحنيليين في كاتسينا⁽¹⁾.

وكان التعليم في جامعة سنكري يشمل المناهج الدراسية التي كانت تتضمن: التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، والعلوم العقلية، وغيرها من المعارف التي كانت تشكل في الوقت ذاته الدعائم الأساسية للعلوم الإسلامية. وقد اشتهرت جامعة تنبكت بتدريس المذهب المالكي، الذي كان يقوم بتعليمه علماء ضالعون في مادته، سواء من الإفريقيين أو الزائرين من أساتذة القاهرة وفاس، الذين كانوا يأتون لإلقاء الدروس على الطلاب الذين يفدون على هذه الجامعة من كل مكان من مناطق إفريقيا الغربية المجاورة⁽²⁾.

3. لتعليم المهني (الحرفي):

رغم قلة انتشار هذا النوع من التعليم واقتصاره على مهمة الخياطة وبعض المهن الحرفية الأخرى؛ كصناعة السيوف والحرايب؛ فإنَّ التدريس في هذا النوع كان يتولاه معلمون متخصصون عُرفوا بـ “الشيخو الرؤساء”، حيث كان التدريس والعمل يتم في بيوت وفي مقر عمل شيخو المهنة. وقد ذكر المؤرخ محمود كعت أنه يوجد في مدينة تنبكتو وحدها 26 بيتاً من بيوت الخياطين، ولكل بيت من تلك البيوت شيخ معلم، وقد بلغ تلاميذهم ما بين 75 إلى 100 تلميذ⁽³⁾.

4. الإجازات العلمية و الشهادات:

إن شهادة التخرج أو الإجازة هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون، ويقع النطق بذلك الإقرار أو يجرر على ورقة تدفع للطالب المتخرج. و وجدت في الواقع ثلاث درجات للإجازة، هي: شهادة السماع، وتعني أن الطالب تتبّع أقوال العالم وحفظها. وشهادة العرض، أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكاره النصوص ومعرفته شروحها. ثم الإجازة الكاملة،

(1) نفسه.

(2) عبد الله عيسى، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق.

(3) محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس. طبعة هوداس وموريس دولافوس، المكتبة الأمريكية و الشرقية، باريس، 1964م، ص 180.

وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإمام بفرن معين من الفنون.

وقد تتعدد المواضيع التي يتقنها الطالب ويكثر أساتذته فيها جميعاً، لكن الإجازة لا تعطى إلا في أحوال نادرة، أي عندما يتأكد المدرس أن الطالب متمكن من مادة أو من إتقانها إتقاناً تاماً، ويلتزم مواظبته على تلك المادة واهتمامه بها، وأيضاً عندما يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد، وقد يكون على المحاز أن يلقي درساً بمحضر أستاذه لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي سيصدره والشهادة التي سيشهد بها⁽¹⁾.

ولا تُعطى الإجازة أو ينطق بها لأكثر من شخص واحد، فلم تكن شهادة جماعية، وقد يضم مجلس علمي مجموعة من الطلبة ويحصل كل واحد منهم على إجازة في فن مستقل متميز، ثم يبقى طالباً عادياً في فن أو فنون أخرى، ويحضر بانتظام حلقات أستاذه فيها.

وتتضمن الإجازة المكتوبة تصريحاً من المدرس بأنه حضر عليه مواد متعددة لكنه برع في مادة خاصة، ولذلك فهو يجيزه في جميع ما يجوز له إن كانت للمدرس كتب من تأليفه، وما يجوز له من غيره إن كان الكتاب من وضع شخص آخر. ومما يدل على مدى تحري الأساتذة وحرصهم على الإنصاف ما جاء في إجازة أحمد بابا عن أستاذه محمد بن محمود بغيغ، وما تضمنته إجازته على يد أحمد المقرئ في مصنفات الأحاديث النبوية الستة بعد أن رواها كلها بالسند السوداني المتصل بروايات واضعي تلك المصنفات، وقد كتبت تلك الإجازة بمراكش في 15 ربيع الآخر عام 1010 للهجري/ 13 أكتوبر 1601م.

ولقد تشابهت الإجازات بين إفريقيا الغربية والمغرب بفضل الاتصال بين علمائهما، وبصفة خاصة بعد عودة علماء السودان المهجرين إلى وطنهم، ويمكن من مراجعة تراجم علماء تنبكتو وفقهاء المالكية السودانيون أن نميز بين نوعين من الإجازات التي أعطيت لبعض المتخرجين: إجازات خاصة بهم فناً واحداً أو عدة فنون متحدة الموضوع، وإجازات عامة تشمل فنوناً وعلومياً متباينة، ومن أمثلة النوع الأول: الإجازات القرآنية والحديثية، وكان يراعى فيها الاحتياط في قراءة النص والمعرفة

(1) عبد القادر زبادية، « القرن 16 وحركة التعليم في تنبكتو مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب »، مجلة *المؤرخ العربي*، العدد 14، (1980)، ص 224.

التامة بالقراءات السبع واختلاف روايات حديث. أما الإجازات العامة فتقتضي ختم عدة مواد على النحو الذي يؤهل المجاز لرواية العلم عنه والقدرة على تبليغه للآخرين، ولم يكن ذلك متأتياً إلا لمن لزم المجالس العلمية لسنوات طويلة قد تشمل جانباً كبيراً من حياة الطالب⁽¹⁾.

5. حركة التأليف و المؤلفين:

شهدت الحواضر الثقافية في غرب إفريقيا حركة تأليف واسعة كان وراءها علماء من غرب إفريقيا تكوّن معظمهم في جامعات السودان الغربي كتبكتو و جني و غاو، و لقد شملت حركة التأليف ميادين مختلفة نصنفها كما يأتي:

أ. في التاريخ:

الشيخ القاضي (محمد بن محمود كعت)، الذي ولد عام 868هـ/1468م بمدينة تمبكتو²، وعاصر السلطان أسقيا الحاج محمد التوري، الذي عاش بين 898هـ و 925هـ، وألف كتابه المشهور في التاريخ والمعروف بـ « تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق انساب العبيد من الأحرار»، والذي بدأ بتأليفه سنة 925هـ/1519م. وكان هذا الكتاب من أهم المصادر الخاصة بتاريخ السودان الغربي في عهد الإسقيين، خاصة فيما يتعلق بتبكتو وأوضاعها، والغزو المغربي لسنغاي، وتخريب تمبكتو، وتدهور حالتها. وقد توفي محمود كعت عام 1001هـ/1593م³ وأكمل أحفاده من بعده، أحداث السنوات الست المسجلة بعد ذلك بالكتاب. وتميز كتابه بلغة سلسة، ومعلومات غزيرة⁴.

- احمد بابا التنبكتي من عائلة اقيت الشهيرة في تنبكتو، كتب أكثر من 400 مؤلف، أشهرها نيل الابتهاج بتطريز الديباج و هو موسوعة تراجم لأكثر من مائة عالم في الفقه المالكي، وكذا كتاب «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» وهو مختصر كتابه الأول حيث هذبه وأضاف له حواشي

(1) عبد الله عيسى، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق

(2) بوعزيز، المصدر السابق، ص 255.

(3) نفسه، ص 199.

(4) قداح نعيم، حضارة الإسلام و حضارة اوربا في افريقيا الغربية، مرجع سابق، 161.

و أسماء أخرى كان قد أغفلها في تطريز الديباج¹، و لديه كتاب معراج الصعود في حكم مجلوب السود.

ومن المؤرخين الذين أنجبتهم بلاد السودان، عبد الرحمان بن عبد الله السعدي، الذي ولد بمدينة تمبكتو عام 1004هـ/1596م، أي بعد الغزو المغربي لمملكة سنغاي الذي حدث عام 999هـ/1591م، وعاش في ظل الحكم السعدي لتمبكتو، حيث عينه الباشا محمد بن عثمان حاكم تمبكتو سنة 1646م ناظراً لخارجيته، فسمح له ذلك المنصب بالتنقل في أنحاء المملكة، فألف كتابه المشهور (تاريخ السودان)، الذي أتمه عام 1063هـ/1655م فكان هذا الكتاب أفضل متمم لتاريخ الفتاش عن تاريخ السودان.

كما عرفت مملكة كانم بورنو حركة تأليف مهمة جدا في التاريخ لعل أهمها مؤلفات احمد بن فرتيوا البرنوي و هو مؤرخ البلاط في إمبراطورية كانم الذي ألف كتاب (تاريخ مي إدريس ألوما وغزواته) وقد كتب هذا التاريخ على حدّ قوله تبعاً لما يراه من تأليف الشيخ الفقيه مسفرمه عمر بن عثمان في عصر سلطانه الملك العادل. وقد ترجمه المؤرخ الألماني بالمر(Palmer) إلى الإنجليزية.

ومنها كتاب (ديوان سلاطين كانم) لمسفرمه عمر بن عثمان السابق الذكر، يضمّ هذا الديوان أهمّ الوثائق، وأسماء السلاطين في إمبراطورية كانم برنو الإسلامية القديمة، ومنها غزوات كانم، وكتاب « أخبار أصل فلات برنوي » وغيرها².

ومن أهمّ الوثائق التاريخية في البرنو الإسلامية « المحارم »، وهي المراسيم التي كان يصدرها الحكام في حق العلماء، وقد استفاد المؤرخون منها، الأمر الذي جعل المؤرخ الألماني بالمر يترجمها إلى الإنجليزية في كتابه (صحارى برنو The Borno Sahara)، كما ترجم عدداً غير يسير من

(1) ليلي صباغ، أحمد بابا التكروري (963-1036هـ / 1556-1627م)، موقع الكتروني:

<https://www.arab-ency.com/ar>

(2) د. آدم أدبيايو سراج الدين ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية بين الأدب والتاريخ، مجلة قراءات افريقية، مجلة ثقافية فصلية محكمة متخصصة في شؤون القارة الإفريقية تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد الخامس عشر، محرم - ربيع الأول 1434 هـ ، يناير - مارس 2013 م، ص 82 و ما بعدها

الرسائل العربية البرنوية والمعاهدات، وبعض القصائد في كتابه الثاني تحت عنوان «مذكرات سودانية Sudanese Memoirs» الذي يقع في ثلاثة أجزاء¹.

فالقيمة التاريخية في هذه الآثار العربية البرنوية لا شكّ فيها، وإن تضاؤل هذه الآثار العربية الثرية في الإيفاء بشروط تدوين التاريخ على حدّ مفهومها المعاصر؛ لا يُخرج أولئك العلماء من كونهم مؤرّخين؛ لأن الاستفادة مما خلفوا من المعلومات.

ب. في الأدب:

تعتبر اللغة بالنسبة لأيّ شعب، بمثابة الوعاء الذي يحمل ثقافته وإنتاجه الأدبي والفكري، لكن اللغة العربية تمتاز بالإضافة إلى كل ذلك، بأنها أداة للصناعة الأدبية، والبلاغة التي ارتبطت بحضارة العرب قبل الإسلام، ثم جاء القرآن ليجعل منها معجزة جمعت جمال الكلمة، وبلاغة القول، وحملت رسالة إنسانية عظيمة، فكان الأدب العربي أول ما نقلته هذه اللغة أينما حلت بعد القرآن. فلم يكن للأفارقة في السودان الغربي قبل مجيء الإسلام من الآداب، سوى حكايات يتناقلها الخلف عن السلف شفهيًا، وتمثل أغلبها في ذكر بطولات الأجداد، وأصول القبائل، والملوك وأنسابهم، بالإضافة إلى صراع الإنسان مع الطبيعة⁽²⁾.

فكان الأدب السوداني إذن، أدبا غير مكتوب، ومعظم التراث الأدبي تم الحفاظ عليه عن طريق الروايات الشفهية، إلى غاية مجيء الإسلام، واحتكاك السودانيين بالتجار المغاربة والفقهاء، وخاصة في المدن الهامة مثل تمبكتو، جاو، جني، ولاتة، وغيرها، حيث كان يلتقي العلماء والتجار والقضاة، فتمكن أهل السودان من تشكيل نخبة حملت آداب اللغة العربية³. وقد سبق وأن ذكرنا البلاغة التي ميزت الأديب الكانمي، أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب الأسود، وشعره الذي قاله عند ملاقاته أبي يوسف المنصور الموحد.

(1) زيادة، المرجع السابق، ص 77.

(3) نفسه.

إن المتصفح لتاريخ اللغة العربية وآدابها في هذه البلد؛ يعرف أن بعض العلماء والرجال على مرّ عصورها قد أسهموا في ترقية العربية وتطويرها في إفريقيا، وتركوا أنواعاً كثيرة من الكتابة، مثل الرسائل الديوانية بين العلماء، والوثائق الرسمية بين رجال الحكومة، وبعض الوثائق التاريخية، ومن الممكن تقسيم هذا الفن الأدبي (النثر) الذي أنتجه علماء هذه الديار إلى فنيّ وعلميّ، فالأول استعملوه في رسائلهم، والثاني في تأليفهم.

أما النثر الفنيّ؛ فخير مثال على ذلك الرسائل المتبادلة بين أهل الفودي وبين فارس الكانم الشيخ محمد الأمين الكانمي، ونورد هنا نصّاً من رسالته إلى الزعيم الفلاني الشيخ عثمان بن فودي، قال فيها: « من المتعقّر بتراب الذنوب، والمتدنّر بجلباب العيوب، العبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي إلى العلماء الفلانيين ورؤسائهم، السلام على من اتّبع الهدى، أما بعد، فالباعث لرسم هذا المزبور، أنه لما ساقطني المقادير لهذا الإقليم؛ وجدتُ نار الفتن بينكم وبين أهل الوطن موقودة، فسألتُ عن السبب، فقيل: بغي وقيل: سنّة، وتخيّرنا في الأمر، فكتبتُ لإخوانكم المجاورين لنا وثيقةً، طلبتُ منهم بيان السبب والدليل على الجواز، فأجابوني بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل، فضلاً عن عالم، فضلاً عن مجدّد، وعدّوا فيه أسماء كتب لنا اطلاع على بعضها، لكن لم نفهم منها ما فهموه¹.

ومن أمثلة الرسائل الديوانية كذلك؛ رسالة ملك برنو إلى السلطان الظاهر البرقوق في القاهرة سنة 894 هـ تقريباً، والتي ورد فيها ما يأتي: « بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً: الحمد لله الذي جعل الخط تراسلاً بين الأبعد، وترجماناً بين الأقارب، ومصافحة بين الأحباب، ومؤنساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات، وفسدت الحاجات، ومن المتوكّل على الله تعالى، الملك الأجلّ المستنصر بالله، المنصور في كلّ حين وأوان، ودهر وزمان، الملك العادل، الزاهد التّقي التّقي، الأجد والأجد الغشمشم، فخر الدين، زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور، مصباح الظلام، أبي عمرو عثمان الملك ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرّم الله ضريحه، وأدام ذرية هذا ملكه؛ إلى ملك المصر الجليل، أرض الله المباركة، أم الدنيا، سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر، وأعذب من ماء الغمام.. زاد الله ملككم وسلطانكم، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن والعلوم،

(1) آدم أديبايو سراج الدين، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية بين الأدب والتاريخ، مرجع سابق، ص85.

وجماعتكم وأهل طاعتكم أجمعين. وبعد ذلك؛ فإننا قد أرسلنا إليكم رسولنا، وهو عمّي، واسمه إدريس بن محمد، من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا، فإن الأعراب الذين يُسمّون جذاما وغيرهم، قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعاف الرجال، وقرابتنا من المسلمين»¹.

وإذا ألقينا نظرة على ما أوردناه من مثال للإنتاج الهلمي باللغة العربية لعلماء كانم برنو؛ يتضح أن هؤلاء العلماء قد أسهموا بقدر الإمكان في التأليف العربي، وتناولوا فيه مواضيع شتى، مع هذا فمن الأحسن أن ننتبه إلى سؤال قد يطرح نفسه على الدارس المدقق، وهو أنه إذا كان لعلماء كانم برنو. تراث عربي².

ج. العلوم الشرعية و العقلية:

من أشهر علماء غرب إفريقيا تأليفا في هذا المجال و خاصة خلال القرن 16م نذكر احمد بابا التنبكتي الذي ترك لنا حوالي 40 كتاب، حيث عبر عنها بقوله: « وألفت عدة كتب تزيد على أربعين تأليفا: كشرحي على مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح ممزوجا محرراً، وحواشي على مواضع منه، والحاشية المسماة من الرب الجليل في مهمات تحرير خليل يكون في سفرين، وفوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح للسيوطي»³.

وله كتاب فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، والزند الوري في مسألة تخيير المشتري، و ايضا تنبيه الواقف على تحرير نية الحالف ، كما كتب تعليقا على أوائل الألفية سماه النكت الوفية بشرح الألفية، ونيل الأمل في تفضيل النية على العمل، وغاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة في كراسين، وآخر سماه "النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة، وما رواه الرواة في مجانبة الولاية، بالإضافة إلى شرح الصغرى للسنوسي، ومختصر ترجمة السنوسي، ونيل الابتهاج بتطريز الديقاج، و "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديقاج" اختصر فيه "النيل"، وحمائل الزهر فيما ورد من كفيات الصلاة على سيد البشر، والدرر النصير في ألفاظ الصلاة على البشير، وسؤال وجواب في جواز الدعاء باللهم ، وشرح الصدر وتنوير القلب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من ذنب، والكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، المناقب الفاخرة في أسماء سيد الدنيا والآخرة،

(1) آدم أديبايو سراج الدين ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية ، مرجع سابق،ص 87.

(2) نفسه

(3) جمال بامي، احمد بابا التنبكتي، موقع الكتروني: <https://www.maghress.com/almithaq/6676>

والمنهج المبين في شرح حديث أولياء الله الصالحين، والبدور المسفرة في شرح حديث الفطرة، وفتح الصمد الفرد في معنى محبة الله تعالى للعبد، نزول الرحمة في التحديث بالنعمة، ودرر الوشاح في فوائد النكاح وهو مختصر لكتاب الوشاح للسيوطي، ونيل المرام ببيان حكم الأقدام على الدعاء لما فيه من إيهام وهو مأخوذ من مسودة تأليفه فتح القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير، وتحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء ومختصره مرآة التعريف في فضل العلم الشريف، ودرر السلوك بذكر أفاضل الخلفاء الملوك، وأجوبة الأسئلة المصرية، وله أسئلة في المشكلات¹.

و خلال القرن 19م ألف الشيخ عثمان دان فوديو في بلاد الهوسا أكثر من مائة كتاب في العلوم الشرعية و الجهاد و السياسة أشهرها كتاب « إحياء السنة و إخماد الفتنة » و كتاب « السنة و إخماد البدعة » الذي تطرق فيه إلى عدة مسائل تتعلق بالشرع و أركان الإسلام من صلاة و صيام و حج و زكاة، و آداب الطعام و ميراث نكاح و بيوع . و كتاب عنونه ب «وثيقة الإخوان لتبيين دلالة وجوب إتباع السنة و الإجماع » ، كما كتب أخوه عبد الله في الأدب و الفقه أشهرها كتابه ضياء السياسات و فقه النوازل².

ج - أثر الحياة العلمية على تطور غرب إفريقيا .

إن ازدهار الحياة العلمية في أي مجتمع سيتبعه حتما ازدهارا في مختلف المجالات المحيطة بالحياة، فالمجتمع في غرب إفريقيا تأثر كثيرا بتلك النهضة العلمية و الثقافية التي شاهدها حواضره، فكانت التنظيمات و الفنون نموذج عن طبيعة المجتمع، لذلك رأينا انه حدث تحول هام في التنظيمات السياسية و العمرانية و الفنية التي أصبحت هي الأخرى نسخة من مظاهر الحياة الثقافية عموما و التي صبغت بالصبغة العربية الإسلامية.

1 - أثرها في نظام الحكم والعمران .

أ. في نظام الحكم:

(1) جمال بامي، مرجع سابق.

(2) بوبكي سكينه، الحركة العلمية بالهوسا في السودان الغربي خلال القرن 19م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامي، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2009/2008م، ص ص من 72 الى

ان انتشار الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا أثر تأثيرا مباشرا على نمط الحياة السياسية للشعوب السودانية، فقد نقلها من نظام القبلي ضيق، الذي يقوم على أساس المشيخات يحكمها رؤساء العشائر ، و من نظام سياسي يقوم على اساس وثنى يرتكز على طقوس السحر و التنجيم ، إلى نظام سياسي يقوم على الدولة، التي تتضمن إدارة وحكومة ونظاما سياسيا¹.

حيث تأثر ملوك غرب إفريقيا بالنظم الإسلامية، القائمة في المشرق و المغرب المسلمين، حيث أصبحوا يقلدون الأمراء المسلمين الذين تأثروا بهم من خلال النماذج التي احتكوا بهم من خلال زيارتهم المتكررة إلى الحج، وكذا الأخبار التي كانت تصلهم عنهم من خلال التجار المسلمين الذين كانت أسواق مالي كتمبكتو، ولاته وجني تعج بهم. بالإضافة إلى احتكاكهم بالعلماء المسلمين، حيث تجسد التأثير العربي الإسلامي في نظام الحكم غرب الإفريقي في المظاهر التالية:

ب. نظام الخلافة:

يعد نظام الخلافة، أهم مظهر يميز النظام السياسي الإسلامي، حيث يرتكز على السلطة المركزية التي يتولاها أمير المؤمنين الذي تؤخذ له البيعة من الرعية، ويخطب باسمه في صلاة الجمعة و الأعياد، وتضرب باسمه الأختام، ويتخذ من الشريعة الإسلامية منهاجا ودستورا لحكمه.

لذلك حاول ملوك غرب إفريقيا الإقتداء بهذه المواصفات، لإعطاء نظام حكمهم صبغة شرعية، بعد أن أصبحوا ينتمون إلى العالم الإسلامي. فكان أهل (سنغاي) إذا ولي منهم ملك، قدم إليه خاتم وسيف ومصحف، يزعمون أن الخليفة الفاطمي أمير المؤمنين قد بعث به إليه²، لكن دون أن تذكر المصادر التاريخية اسم الخليفة الفاطمي بالتحديد. مما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن ذلك مجرد زعم القصد منه ادعاء التولية من طرف أمير المؤمنين، وبالتالي إعطاء حكمهم صفة الشرعية التي توجب الطاعة من طرف الرعية.

ولما كان عهد الإسقيين في مملكة سنغاي، ازداد حرص ملوك جاو على كسب المزيد من الشرعية الدينية لحكمهم، من خلال محاولة افتكاك لقب الخليفة وأمير المؤمنين، وعدم الاكتفاء بلقب والي الخليفة. حيث استغل ملك سنغاي الإسقيا الحاج محمد التوري سقوط دولة المماليك على يد جيش

(1) العمري (أحمد السويلم)، العمري (أحمد السويلم)، الإفريقيون والعرب لقاها، 1967م، ص66.

(2) البكري، المصدر السابق، ص182.

سليم الأول العثماني، في معركتي مرج دابق في رجب من عام 922هـ/1516م، و الريدانية في محرم من عام 923هـ/1517م¹، ليأخذ الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين، وهو المتوكل الثاني عبد العزيز بن يعقوب².

فخلال زيارة الحاج محمد أسقيا للبقاع المقدسة بغرض أداء مناسك الحج في أواخر عام 900 للهجرة، مر بمصر، وكانت الخلافة آنذاك ما تزال للعباسيين قبل أن يأخذها منهم السلطان العثماني سليم الأول عام 923هـ/1517م، وهناك بمصر اجتمع الحاج محمد أسقيا بالخليفة العباسي المتوكل، وطلب منه أن يأذن له في إمارة بلاد السودان، ويكون خليفة عليها هناك، فجعله الخليفة العباسي نائباً له على من وراءه من المسلمين ببلاد السودان. ولما عاد ملك سنغاي إلى بلده، أقام حكمه على قواعد الشريعة الإسلامية³.

ويذكر المؤرخ السوداني محمود كعت، أن الحاج محمد أسقيا لما زار مكة، وكان جالسا بجذاء الكعبة مع شريف مكة مولاي العباس الحسني، أخبره هذا الأخير بأنه الخليفة الحادي عشر من الخلفاء الذين اخبر عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وطلب منه أن يتخلى عن صفة الملك، و ذلك بطرد جميع وزرائه عنه، والتخلي عن جميع آلات السلطنة وأموالها، ووضعها بين يدي العباس، وبعد ثلاثة أيام، خرج إليه مولاي العباس و كان يوم الجمعة، ونادي الحاج محمد أسقيا، وأجلسه بمسجد مكة الشريفة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء، وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفاً، وأشهد الجماعة الحاضرين على أنه خليفة بأرض التكرور، وأن كل من خالفه فقد خالف الله تعالى ورسوله⁴. كما يروي القاضي محمود كعت أيضاً، أن الأسقيا محمد التوري، لما كان عائداً من الحج في طريقه إلى السودان، التقى بالإمام جلال الدين السيوطي بالقاهرة، واخبره هذا الأخير، بأنه يعد من بين اثني عشر خليفة أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم. خمسة منهم (يقصد الخلفاء الأربعة مع الحسن بن علي) ظهوروا بالمدينة، واثان بمصر، وواحد بالشام، واثان بالعراق، ولم يبق منهم إلا اثنان بأرض

(1) طقوش (محمد سهيل)، التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، 2002، ص 359.

(2) التازي (عبد الهادي)، المغرب في خدمة التقارب الإفريقي العربي. في كتاب: *العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية*، الصادر عن المنظمة العربية للثقافة و العلوم، تونس، 1985م، ص 106.

(3) السلاوي، المصدر السابق، ص 48.

(4) المصدر السابق، ص 12.

التكرور، و أن الحاج محمد أسقيا يعد واحد منهما¹. كما أخبره، بأن الخليفة الثاني عشر، والذي سوف يأتي من بعده في بلاد التكرور، ينتمي إلى نفس قبيلته التي تنتسب إلى (الطوردو)² الذين تعود أصولهم الأولى اليمن، وأن عاصمته تكون كوكو (جاو)³.

غير أننا لا نجد أثرا لهذين الخليفين السودانيين في كتاب (تاريخ الخلفاء)، الذي ألفه السيوطي، والذي يشمل تاريخ خلفاء المسلمين، مما يجعل هذه الرواية المنسوبة للسيوطي تبدو غير أكيدة.

ومهما يكن، فإن الحاج محمد التوري، تصرف بعد عودته من الحج كخليفة للمسلمين، وقرر انتهاج قواعد الشريعة الإسلامية، وإتباع منهاج أهل السنة، حيث أخذ عن شيخ الإسلام جلال الدين السيوطي علوم الفقه والعقيدة، وتعلم منه الحلال والحرام، وآداب الشريعة وأحكامها، وانتفع بوصاياه ومواعظه.⁴ ومنذ ذلك الحين، أصبح الحاج محمد اسقيا، يعتبر نفسه خليفة المسلمين، وأصبح يتبع منهاج الخليفة العباسي في مجلسه، وملبسه، وسائر أموره، ومال إلى السيرة العربية، وانصرف عن بقايا سيرة العجم التي كانت عند ملوك السودان.⁵

(1) كعت، المصدر السابق، ص 13.

(2) هذه الكلمة بلغة (الفلاتة)، و تدل على شخص ينتمي إلى هيئة أو حزب أو جماعة تأسست في منطقة (فوتا جالون) والتي معناها، الأشخاص الذين يشتركون في الصلاة، وقد استعملت من طرف السودانيين للدلالة على المسلمين المخدرين من فوتا

السنغالية أو (فوتا تورو). في الهامش Houdas et Delafosse, Tarikh el Fettache, P9,

. و تعد (فوتا جالون) منطقة و هضبة موجودة حاليا في شمال غرب جمهورية غينيا، تقع بين مدينتي (لابه) و (بوكي)

الغانيتان. مجموعة من الأساتذة على رأسهم: نقولا زيادة: أطلس العالم. مكتبة لبنان، بيروت، 1417هـ، 13.

(4) كعت، المصدر السابق، ص 13.

(5) السلوي (أبو العباس الناصري)، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. (ثلاثة أجزاء). تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري. مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954م، ص 48.

(6) نفسه.

(7) الوزان (حسن)، المصدر السابق، ج 2، ص 169.

وقد انتشرت سيرة التشبيه بالخلفاء لدى ملوك السودان، إلى درجة أننا أصبحنا لا نفرق بينهم وبين أي خليفة عباسي آنذاك. فكان الملك يجلس في قصره الخاص، ومن حوله عدد كبير من الجواري والعبيد والخصيان والحرس والموظفين والكتاب والمستشارين والأمناء¹.

كما أصبح ملوك السودان يحرصون على أخذ البيعة من ولائهم، وفروض الولاء وجمع الخراج وغيرها². إذ أنه في عهد الإسقيين، و منذ عودة الحاج محمد اسقيا من الحج أصبح ينظم حفلا ومراسيم لتولي أي ملك جديد الحكم. ففي اليوم الذي ينصب فيه ملك جديد على سنغاي، يدخل هذا الأخير إلى القصر ويجلس على العرش، وتضرب الطبول أمامه، وتقدم إليه إشارات السلطنة، وهي عبارة عن قميص مزركش، ولباس على الرأس يشبه التاج، وأضيفت له تلك العمامة الخضراء والسيوف والبردة التي كان شريف مكة قد خلعها على الحاج محمد عندما باركه خليفة على بلاد السودان، ثم يستقبل الملك الجديد الولاية، وقادة الجيش، ويصلي الظهر في المسجد، بعدها يقسم جميع موظفي الدولة الكبار، وأفراد العائلة المالكة، يمين الولاء والطاعة والإخلاص له، ويشهد على ذلك القاضي والعلماء³. كما تأثر الاسقيا محمد توري بالنصائح التي زوده بها الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بعد الأجوبة التي قدمها لأسئلته حول شؤون الحكم.

و حتى في بلاد الهوسا فقد تأثر ملوكها بالعلماء المسلمين و على رأسهم المغيلي الذي ساهم في إصلاح نظامهم السياسي، حيث قدم مجموعة من النصائح في شؤون الحكم لملك كانو محمد رمفا دونها في كتاب عنونه بما يجب على الملوك من حسن النية، و هي مدونة لشروط الحكم الإسلامي و ما يجب ان يتصف به الحاكم المسلم، و هذا بعدما راي من انتشار التقاليد الوثنية في ممالك الهوسا، كما ساهمت شخصيات علمية أخرى في إصلاح نظام الحكم في ممالك الهوسا حيث تشير المصادران هناك شخصيات علمية ساهمت في دعم السنة و انماط العيش و الحكم الإسلامية بكانو، منهم احمد بن عمر اتقيت التنبكتي، وهو جد احمد بابا التنبكتي، الذي دخل كانو و درس بها نحو سنة 1487م، و فيما بين 1504 و1518 وصل عبد الرحمان سقين المغربي، و هو تلميذ ابن غازي

(1) Deschamps (Hubert) , L'Afrique Noire précoloniale. Presses universitaires de France, Paris, 1962, PP 52et 53

(2) . زبادية، المرجع السابق، ص 63.

المؤرخ، إلى كانوا قادمًا من مصر و درس بها، و كان زميله مخلوف البلبالي (المتوفي بعد 1434م)، نشيطا هو الآخر في حقل التعليم بكانو و كتسينة، حيث قام هذان الشخصان بنشاط تعليمي كان له تأثير في الناحية السياسية بكانو حيث قاموا بقطع الأشجار المقدسة في عهد محمد رمفة¹.

ب. الوزارة:

يعد ابن بطوطة والعمري أهم مصدرين مكتوبين تطرقا إلى أكبر قدر من التفاصيل حول الوظائف والخطط التي عرفتتها إمبراطورية مالي خلال أوج قوتها في القرن الثامن للهجرة/14م، ورغم ذلك فإننا لا نجد من بين الوظائف التي ذكروها منصب وزير.⁽²⁾ ولكننا إذا تمعنا جيدا في تلك الوظائف فإن عددا منها يوازي منصب الوزير عند العرب المسلمين آنذاك، ولكنها تعطى لها أسماء أخرى. فحسب الروايات الشفوية فإن مملكة مالي كانت تضم وظائف تعادل وظائف الوزراء في إطار مبدأ تقسيم العمل، فكان هناك وزير يتكفل بالأجانب وآخر يتكفل بالضرائب وثالث يشرف على الشؤون الدينية وغيرهم.⁽³⁾ ولكنهم في الحقيقة كانوا كلهم عبارة عن مسؤولين عن القطاعات التي كلفوا بها أمام الوزير الأول الذي يتدبه الملك بنفسه ويعدون تابعين له مباشرة.⁽⁴⁾

وربما كان هذا الوزير الأول هو النائب الذي ذكره ابن بطوطة خلال وصفه لمجلسه بالمشور، وأن الفرارية هم الوزراء التابعين له، لكن ابن بطوطة لم يشر إلى وظيفة هذا النائب ولا الفرارية باستثناء ما ذكره عن كونهم أول من يدخل إلى مجلس الملك حاملين معهم فسين وكبشين، كما ذكر قيامهم بشكر الملك بنزع قسيهم لما وزع على الناس الذهب فوق رؤوسهم.⁽⁵⁾ وفي موضع آخر ذكر ابن

(1) مهدي ادامو، الهوسا و جيرانهم بالسودان الأوسط، في كتاب تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، الصادر عن اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988، ص 296

(2) يذكر القلقشندي (ص 298) بأن هذه المملكة كان يوجد فيها الوزراء والقضاة والكتاب، ويقول بأنه نقل ذلك عن كتاب مسالك الأبصار للعمري، لكننا لم نجد وظيفة بهذا الاسم عند العمري. (القلقشندي) (أبو العباس أحمد)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، الجزء الخامس، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1333هـ/ 1915م.

(3) **Bwemba-Bong**, Quand l'Afrique était l'or noire de l'europe, volume 1, éditions Menaibuc, 2005, p26. **Joseph K i-Zerbo et René Holenstein**, A quand l'Afrique. Éditions de l'ambe, 2003, p76.

(4) **ONESCO**, Histoire de l'humanité (600-1492). Editions Unesco, Paris, 2008, p1171

(5) المصدر السابق، ص 685، 687.

بطوطة قصة رواها احد القضاة للملك، ومفادها، هناك جرادة تكلمت وقالت بأن الله يبعثها للبلاد التي يكثر فيها الفساد لإفساد زرعها، وهنا قام الفرارية ونزعوا عمائمهم كعلامة لتبرئتهم من الظلم.⁽¹⁾ فمن خلال كلام ابن بطوطة يظهر لنا المكانة الرفيعة التي يتمتع بها النائب والفرارية لدى الملك، من خلال الأسبقية التي تعطى لهم في دخول مجلسه، وهي مكانة لا ينالها عادة إلا الوزراء والمسؤولين الكبار في الدولة، كما نستنتج من نزع الفرارية لعمائمهم أمام قصة الجرادة وتبرئتهم من الظلم، أن هؤلاء الناس كانوا يشعرون بمسؤوليتهم على إقامة العدل ومحاربة الظلم في ربوع الإمبراطورية، وهي الوظيفة التي كان يضطلع بها الوزراء خلال العصور الوسطى.

وقد تكلم ابن خلدون عن رجل تولى الحكم في مملكة مالي مباشرة بعد مقتل منسا مغا ابن منسا موسى الثاني و هو زوج أم منسا موسى الثاني ويدعى صندكي الوزير⁽²⁾. فرغم أن كلام ابن خلدون لا يوضح إن كان صندكي هو اسم هذا الوزير، أم هو لقب خاص بكل من تولى الوزارة في مالي، إلا أن بعض المؤرخين استنتجوا من هذا بأن الوزير في عهد خلفاء سوندياتا كان يلقب بـ"صندكي" (Sandigui)، أوديون صندكي (Dyon sandigui).⁽³⁾ ورغم أن ابن خلدون يذكر في موضع آخر بأن الوزير كان يدعى عندهم ماري، ومنه اشتق اسم ماري جاطه⁽⁴⁾، إلا أننا نجد بأن ابن خلدون يذكر في موضع آخر من نفس المصدر، بأن معنى ماري عند المالين هو الأمير وليس الوزير.⁽⁵⁾

لذلك فإننا نعتقد بأن الوزير الذي ذكره ابن خلدون لم يكن يلقب بماري جاطة على أساس الوظيفة، و إنما كان ذلك اسمه الشخصي. لكن الشيء الذي نفهمه من رواية ابن خلدون هو أن هذا الصندكي كان كثيرا ما ينفرد بأمور الدولة عندما يجد ملوكا ضعافا مثلما حدث في أواخر عهد منسا مغا.

(1) نفسه، ص 688.

(2) ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر. مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، بيروت، لبنان، 1421 هـ / 2000 م. مج 6، ص 270.

(3) طرخان (إبراهيم علي)، دولة مالي الإسلامية. دراسات في التاريخ القومي الإفريقي. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1973، ص 129.

(4) المصدر السابق، مج 6، ص 269.

(5) نفسه، ص 266.

وإذا رجعنا إلى الروايات الشفوية المندية فأنا نجد بان الوزير كان يدعى "فارما" وهي كلمة مندية مركبة من كلمتين هما فا (Fa) أوفار (Far) والتي تعني الأب أو الوالد، وكلمة ما (Ma) وهو اسم موصول يلعب دور ظرف المكان في اللغة المندية، ويعني مكان منخفض أو الأسفل⁽¹⁾، وبالتالي فيمكن أن يكون ابن بطوطة قد ذكر الفراري قاصداً بما فارما التي تعني الوزير، أو فار التي تعني الوالد أو الأب، خاصة وأنه لم يكن يتقن اللغة المندية، إذ كان يستعين بالترجمان لمخاطبة منسا سليمان.

وحسب الروايات الشفوية فإن الوزارات في مملكة مالي كانت متعددة، فهناك وزير الثقافة الذي يدعى "بايلي فارما" ووزير الأملاك الذي يدعى "واني فارما" أو (دوغو فاما). أما وزير المياه على النيجر الذي يعد المسؤول على الصيد والملاحة به فيدعى "جيتيجي فاما"، كما وجد وزير الغابات الذي كان يطلق عليه اسم "ساو فارما" أو "تو فاما"، والوزير المكلف بالخبز المدعو "خاليسي فارما" أو "فودي فاما".⁽²⁾ ونجد في بعض المصادر باسم سانتيجيوهو في الحقيقة أمين مخازن الغلال الملكية، والذي يعتبر بمثابة وزير المالية.⁽³⁾ ولهذا نعتقد بأن سانجيتي وصندكي الذي ذكره ابن خلدون، ما هو إلا تحريف لكلمة سانديكي التي تعني وزير المالية أو وزير المخازن الملكية، باللغة المالنكية. كما وجدت هناك وزارة مكلفة بالضرائب أيضاً.⁽⁴⁾

وقد عرفت سنغاي بعض الوزارات، التي تعود إلى فترة خضوع غاو لحكم أسرة كيتا، ومنها خالص فارما وهو وزير المالية، وزير البيض أو الأجنب وهو كوراي فارما، والوزير الأول أو نائب الإمبراطور وهو الأمين العام للإمبراطور ويدعى الكنفاري أو البالاما⁽⁵⁾، ولكن وظيفة الوزير لم تكن تقتصر على تسيير أمور قطاعه وتنفيذ سياسة الملك في القطاع الذي كلف به، وإنما كانت له مهمة إقليمية تضاف إلى مهمته الوزارية ألا وهي تقديم الاستشارات المستقبلية عن إقليم ما لأصحاب

(1) **Delafosse(Maurice)** , Essai de manuel pratique de la langue Mandé ou Mandingue. Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901, p12.

(2) **Niane Tamsir Djibril**, Recherches sur l'empire du mali au moyen âge, mémoire de l'institut national de recherche, Conakry, La Guinée, 1962, p55,

(3) **جبريل تمسير نياي**، مالي و التوسع الثاني للمنديغ، ص 17.

(4) **Bwemba-Bang** , Op.Cit,p28.

(5) **جبريل تمسير نياي**، مرجع سابق، ص 172 .

السلطات الإدارات المحلية من أمراء وحكام مقاطعات، وبذلك لعبوا دور الجسر الذي يربط بين الملك وحكام الإمارات التابعة إليه،⁽¹⁾ لذلك قال عنهم ابن بطوطة بأنهم أمراء⁽²⁾.

كما كان الوزراء يقومون بالترجمة لحكام المقاطعات الذين يأتون لزيارة الملك لما يكونوا من مناطق لا تتكلم لغته، بحيث يتولون مهمة شرح قضاياهم ومشاكلهم للملك⁽³⁾.

ب. أثرها في الميدان العمراني:

أن ازدهار الحياة الثقافية و العلمية في غرب افريقيا تبعه ازدهار في الذوق الفني و خاصة الميدان العمراني، كما أن تفتح الافارقة على الثقافة العربية الإسلامية جعلهم يستمدون منها الكثير من الخصائص في المجال العمراني، لكنهم اثبتوا خصائصهم الابداعية في هذا المجال، فقد أصبحوا يتميزون عن غيرهم من الشعوب في هذا المجال، حيث تمكنوا من وضع أسس الفن المعماري السوداني، وهو الفن الذي يجمع بين الطراز الإسلامي ويحتفظ بالخصوصيات الإفريقية.

فالطراز المعماري السوداني القديم كان بسيطاً تميزه البنية ذات السقف المستدير، وذات الشكل الهرمي المغطى بالقش، أما الحيطان فكانت تُبنى بالطوب ونادراً ما كانت تتخللها الحجارة، كما كانت توجد بالقرب من البيت زريبة لتربية الماشية.⁽⁴⁾ فكانت العاصمة نياني في عهد سوندياتا كيتا مبنية مساكنها بالطين وأسقفها مصنوعة من القصب.⁽⁵⁾ وحتى مدينة تمبكتو كانت في البداية مبنية بعيذان الأشجار وحشائش النباتات، وفي مراحل أخرى من تاريخها قبل أن يحكمها منسا موسى كانت تبنى من شجر الصيان وهو نوع من الأشجار ذات الجذوع الغليظة، أو مبنية بأوتاد مخلوطة بالطين ومسقوفة بالتبن.⁽⁶⁾

لكن وصول منسا إلى الحكم أحدث ثورة حقيقية في المجال العمراني المندي خاصة والسوداني عامة، فخلال تواجده بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة 1324م، تعرف على مهندس وشاعر

⁽¹⁾ Joseph k i-Zerbo et René holenstein , Op.Cit, p76.

⁽²⁾المصدر السابق، ص 682.

⁽³⁾ Bwemba-Bong, Op.Cit, p26 .

⁽⁴⁾ زبادية(عبد القادر)، الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربي جنوب الصحراء.(دراسات ونصوص). المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 52.

⁽⁵⁾ Mauny(Raymond), Les siècles obscurs Op.Cit, p160.

⁽⁶⁾ باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم)، المرجع السابق، ص 98 .

ومهندس أندلسي هو أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجن⁽¹⁾ فاصطحبه معه إلى مالي، فقام هذا الأخير الذي كان بارعا في الهندسة والتصميم بإحداث ثورة في الطراز المعماري السوداني.⁽²⁾ وكان مع الوفد المرافق لمنسا موسى خلال عودته من الحج شخص يدعى المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي الصنهاجي، وهو أمير من ولد عبد المؤمن بن علي زعيم الموحديين، كان قد التقاه في طريق عودته من الحج، بمدينة غدامس⁽³⁾.

وعند مرورهم بمدينة غاو عاصمة سنغاي التي أصبحت تابعة لإمبراطورية مالي، أبدى المعمر اندهائه لوضعية مسجدها المتردية، والتي كانت تشبه كل منازل البلد في تلك الفترة والمتمثلة في كوخ سقفه من القش،⁽⁴⁾ لذلك نبه منسا موسى إلى أن هذه البناية لا ترقى لمكان يعبد فيه الله، ولا ترقى إلى مقام الإمبراطور، ذلك أن الطراز المعماري السوداني البسيط كان ما يزال يطغى على بنايات ومساجد المملكة، فالمساجد كانت قليلة ولا توجد في كل مكان، وتفتقد إلى اللمسات الفنية للعمارة، فأغلب أمكنة الصلاة بمدن المملكة كانت عبارة عن مربعات أو دوائر رملية تفصل الطريق العمومي بإطار من الحجارة، وتدعى (باتوما)، وكانت هناك مصليات تأخذ شكل كوخ كبير من القش⁽⁵⁾، وطلب هذا الأمير الموحي من أبي إسحاق الساحلي لبناء جامع أكثر رخاء ورونق، فطلب هذا الأخير بأن يحضروا له المواد والسلع والأيدي العاملة التي يتطلبها هذا الإنجاز، فقام ببناء

(1) هو أبو إسحاق إبراهيم الغرناطي بن الفقيه الفرضي محمد الأنصاري الأوسي الغرناطي، المعروف بالساحلي والطويجن، وهو من أهل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة، وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة، وكان من أهل العلم فقيها متفنا، وله الباع المديد في الفرائض، كان في صغره موثقا بسماط شهود غرناطة، وجال ببلاد المغرب، ثم قدم القاهرة ودخل الشام والعراق، ودخل اليمن والحجاز، وعاد إلى مصر، ثم سار إلى بلاد السودان واستوطنها زمنا طويلا، بالغ فيها أقصى مبالغ المكانة والحظوة والشهرة والجلالة، واقتنى مالا دثر. (العسقلاني(ابن حجر): الدرر الكامنة، ج1، ص211). ويذكر دولا فوس بأنه توفي بتمبكتو خلال فترة حكم منسا سليمان سنة 1346 م (Haut Sénégal-Niger, t2, p190).

(2) السلاوي (أبو العباس الناصري)، الاستقصا، مصدر سابق، ص ص74 و75.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص267.

(4) ذكر العمري بأن مدينة نياني كانت مبنية وسقوفها بالأخشاب والقصب وغالب سقوفها قباب أو جلمونات كالقباب، وأرضها تراب مرمّل. (المصدر السابق، ص111)

(5) قداح نعيم، افريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق، ص112.

أول مسجد بالطين في غاو ذا سقف يحتوي على سطح، ومنارة ذات شكل هرمي، وهو محراب مبني بالآجر والطين المشوي بالنار، وأحزمة ظاهرة أصبحت متواجدة أينما وجد المسلمون في السودان.⁽¹⁾

وبهذا ظهر طراز معماري جديد عرفت مالي من خلاله مالي بناء المساجد الأنيقة التي تذكرنا بتلك الموجودة في الجنوب الجزائري والمغربي، والقصور والمنازل التي كانت مأوى قادة البربر في جبال الأطلس. فهذا الطابع المعماري الذي جسده الساحلي ظهر جليا مع بناء القبة المربعة الشكل بالقصر الملكي بمدينة نياني، فلقد كان القصر الملكي لعائلة كيتا مكون من مجموعة من المنازل دائرية الشكل مرتبطة مع بعضها البعض عن طريق سور للدعم، وكلها تؤدي إلى ناحية الجنوب أين توجد ساحة عمومية كبيرة، وهي المكان الذي كان يستقبل فيه الملك رعيته، كما توجد قاعة أخرى ذات شكل مثالي وهي خاصة باستقبالات الملك الخاصة، وهي القاعة التي أضافها المهندس أبو الساحلي، وهي البناية الوحيدة المبنية بالحجارة، عكس البنايات الأخرى التي كانت مبنية بالطين.⁽²⁾

ولعل أهم ما أبحر المالين والمؤرخين العرب الذين كتبوا عن الموضوع هو تلك القبة المربعة الشكل التي غطت قصره وحضرة ملكه، والتي استفرغ فيها أبو إسحاق الساحلي كل موهبته وإجادته، حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ المشبعة، والنقوش والتخريم، فكانت من أجمل المباني التي بنيت في مالي وأتقنها، ونالت دهشة منسا موسى واستغرابه، حيث لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل، لذلك كافأ مهندسه باثنتي عشرة ألف مثقال من التبر (الذهب المسحوق) بالإضافة إلى هدايا أخرى وصلات سنية.⁽³⁾

إن أوصاف هذه القبة تعبر عن ميلاد نموذج جديد لطابع للعمارة المغربية التي اشتهرت بقبابها ومآذنها المربعة في عهد الزيانيين والمرينيين خاصة، إذ كانت فاس والأندلس خلال العهد الميني تتخذ قبابها شكلا مربعا، و تحتوي على زخارف، والتي لم تكن موجودة من قبل في المغرب،⁽⁴⁾ ومن هنا

⁽¹⁾ Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard) , Les Nègres. Editions l'harmattan, Paris, 2005, pp 22 e t23 ;- Delafosse(Maurice) , Haut Sénégal-Niger, tome2, p189.

⁽²⁾ Ogunsole(John Igué) , Les villes précoloniales d'Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008, p36.

⁽³⁾ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 268. — ،. السلاوي، المصدر السابق، 152 .

⁽⁴⁾ بن قرية(صالح)، المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص ص 99، 100.

نستطيع أن ندرك مدى التأثير الذي تركه هذا المهندس المعماري الأندلسي الذي حل بفاس وعاش بالأندلس، والذي حمل فنه معه إلى بلاد السودان، وبالتالي عرفت مالي الفن الإسلامي من باب العمارة.

لما رأى منسا موسى إنجاز الساحلي في غاوا، طلب منه إعادة إنجاز مثل هذا الإبداع في مدينة تمبكتو التي كانت مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة /11م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14م.⁽¹⁾ فقام الطويجن بعمل كبير في هذه المدينة التي سوف تصبح بفضلها أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتمبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك،⁽²⁾ فأقام له صومعة من خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين.⁽³⁾

وقد نقل المهندس الأندلسي هذا النموذج المعماري عن المغاربة الذين كانوا يقيمون القبور بالقرب من المساجد أو بداخلها خاصة أضرحة العلماء والصالحين.⁽⁴⁾ وقد أطلق على هذا المسجد الكبير فيما بعد اسم جنجير بر (أي المسجد الكبير)، وظل قائما لمدة ثلاث قرون، بحيث ما تزال بعض أسسه قائمة إلى غاية الوقت الحاضر بمدينة تمبكتو.⁽⁵⁾ حيث لخص فيه أبو إسحاق الساحلي

(1) السعدي، المصدر السابق، ص 20، 21 .

(2) Cornevin(Robert et Mariane), Histoire de l'Afrique, Op0Cit, p164.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص 87 .

(4) يذكر عبد الرحمان السعدي بأنه لما قام الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بتجديد المسجد الكبير بين سنتي 991 و 1583/هـ و 1587م وبنا مكانه مسجدا آخر، خرب جميع تلك القبور وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صير الجميع مسجدا، وزادها زيادة كبيرة. (تاريخ السودان، ص 56).

(5) Cornevin(Robert et Mariane), Op.Cit, p164.

= يذكر الظابط الفرنسي فيليكس دوبوا(Felix Dubois) الذي زار تمبكتو سنة 1896م بأنه رغم أن مساحة هذا المسجد ازدادت واتسعت خلال القرن العاشر للهجرة/16م مع تزايد عدد سكان تمبكتو إلا أنها في الحقيقة لا يمكن أن نصفها بالعمل الفني الكبير، إذ تعد مجرد أسوار متفاوتة الطول والعرض والارتفاع ولا ترقى للمستوى حتى تلك القبور والأضرحة التي أنشئت بجوارها والتي تتميز بانسجام كبير تذكرنا بجمال التزيينات التي بني بها جامع جنيالقدم. Dubois (Felix)

الطراز السوداني في العمارة، كما بنا الإقامة الملكية المعروفة بالمادوغو (Madougou) وتعني أرض السيد في أقصى شمال غرب تمبكتو، بالإضافة إلى بنائه لأسوار المدينة التي يبدو أنها بنيت من أجل حمايتها بعد تعرضها لهجمات الموشي⁽¹⁾ وزود وسط مدينة تمبكتو بساحة كبيرة لم يعرف السودان الغربي لها مثيلا من قبل ولم توجد في أي بلد سوداني آخر خلال تلك الفترة، أو قبلها⁽²⁾، مما يؤكد أصالة العمارة التي أدخله منسا موسى وحدائته بالنسبة للسودان الغربي. وازداد اهتمام منسا موسى بعد ذلك ببناء المساجد، وخاصة بعد حجه، حيث أنشأ خلال سفره إلى الحجاز مسجدا في كل مدينة مر بها من مدن السودان، منها مسجد تمبكتو الذي ذكرناه، ومسجد دوكوري، كوندام، ديري، وانكو ومسجد باكو⁽³⁾.

بعد ذلك وجه منسا موسى جهوده العمرانية إلى مدينة جني الواقعة عند منعطف النيجر، والتي كان أهلها ينتمون حسب التقسيم الطائفي الذي وضعه سوندياتا إلى طبقة الحرفيين، فكانت هذه المدينة تعج بالبنائين الذين أتقنوا عملية البناء المعروفة بالبانكو (Banco) باحترافية كبيرة⁽⁴⁾، كما ظهر خلال هذه الفترة مهندس مغربي آخر هو معلوم إدريس المراكشي الذي عاصر أبا إسحاق الساحلي⁽⁵⁾ الذي يكون منسا موسى قد أوكل له مهمة بناء مدينة جني، وبالتالي يكون قد أضاف لها اللمسة المغربية للعمارة السودانية التي كان قد بدأها المهندس الغرناطي. فامتزجت في جني عبقرية تصميم إدريس المراكشي مع احترافية بناؤوا جني، لذلك تميزت بنايات جني بالأناقة والجمال والإتقان، حيث تكونت المنازل فيها من طابق أول مؤلف من عدة أروقة، وتحتوي على مخادع صغيرة أين يوضع فيها الماء داخل جرات من الطين، وساحة صغيرة على مستوى واحد هذا الطابق الذي لا تطل عليه الشمس إلا من هذه الجهة.

Timbuctoo the mysterious. Translated from the french by : Diana White, New York, 1896, p275.

⁽¹⁾ Ogunsolo(John Igué), OpCit, p41.

⁽²⁾ Dubois(Felix), Op Cit,p275.

⁽³⁾ Mahmoud kati, OpCit, p56.

⁽⁴⁾ Niane djibril temsir, Le soudan occidental au temps des grands empires. Présence Africaine, Paris, 1975, p134.

⁽⁵⁾ يعتقد الأستاذ عبد القادر زبادة بأن معلوم إدريس هذا كان أحد مساعدي الساحلي. (مملكة سنغاي في عهد الاسقيين. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص 107).

أما الطابق الأرضي فإنه موزع بنفس الطريقة، ويستعمل كمخزن لحفظ الأرز والذرة البيضاء، كما يستخدم كإسطبل للحيوانات. وهذا المخزن يؤدي إلى ساحة أخرى توجد خلف المنزل، ويتم الصعود من الطابق الأرضي إلى العلوي عن طرق سلّمين واحد منهما يوجد عند المدخل والآخر في الساحة بالداخل. أما السقف فكان مغطى بقطع خشبية متباعدة عن بعضها بمسافات معينة ويغطيها الطين لتشكيل سطحاً صغيراً محاطاً بحاجز مرتفع قليلاً، ويتم الصعود إلى هذا السطح عن طريق سلم من عشر درجات⁽¹⁾. بالإضافة إلى المنازل قام إدريس المراكشي ببناء الجامع الكبير بمدينة جني، الذي يمثل نموذجاً حقيقياً للتمازج المعماري السوداني مع العمارة المغربية⁽²⁾.

وكان عهد منسا سليمان شقيق منسا موسى هو أيضاً زاخراً بالإنجازات العمرانية، فبنا المساجد العادية والمساجد الكبيرة، ورفع المآذن، فاقد كان حريصاً على صلاة الجماعة في المساجد وجعلها فرضاً على الناس، فقد ذكر ابن بطوطة بأنه في عصر هذا الملك كان الناس مواظبين على الصلوات وملتزمين بأدائها في جماعة، حتى إذا كان يوم الجمعة ولم ييكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام⁽³⁾. مما تطلب بناء المزيد من المساجد، كما وسع مدينة نياني العاصمة إلى أن أصبحت مساحتها تبلغ حوالي بريد طولاً وعرضاً⁽⁴⁾ وجعل بناياتها مكونة من طبقات من الطين تشبه أسوار وحدائق دمشق، وسقفها يتخذ شكل قبة أو سنام جمل⁽⁵⁾.

وعموماً فإن الجهود التي بذلها الملك منسا موسى، بجلب هذا المهندس الأندلسي والذي كان بمثابة وزيره للعمران والفنون الجميلة حسب دولافوس وموراليس⁽⁶⁾، قد أفرزت طرازاً معمارياً يوافق بين الطراز المغربي الموريسكي مع شكل العمارة السودانية البسيطة، وبالتالي ظهر مصطلح ما يعرف بالفن المعماري السوداني الذي اقترن بمنسا موسى ومهندس الأندلسي، وهو في الحقيقة ليس طرازاً سودانياً

(1) Niane djibril temsir , Le soudan occidental, p130.

(2) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 147 .

(3) المصدر السابق، ص 690 .

(4) البريد هو وحدة قياس قديمة لقياس المسافة تقدر بـ 23 كيلومتراً

Mauny (Raymond) , les siècles obscurs , p160.

(5) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 150 .

(6) Delafosse (Maurice) et Mouralis (Bernard) , Les Nègres,p23.

خالصا وإنما يستمد خصائصه من الحضارات المتوسطية القديمة والوسطى والذي ما يزال موجودا في جنوب الصحراء الغربية وجنوب المغرب الأقصى.⁽¹⁾

لكن بعض المؤرخين الغربيين والمستشرقين لا يريدون الاعتراف بدور الساحلي في العمارة السودانية، وينكرون وجود ذلك الأثر المغربي فيها، ومنهم من يعتبر شخصية أبي إسحاق الساحلي شخصية وهمية ولا وجود لها، في محاولة لنفي أي تأثير عربي إسلامي في العمارة السودانية. فالأستاذة سوزان أراديون (Suzan Aradeon) تذكر بأن أبا إسحاق الساحلي هو مجرد أسطورة من وحي خيال المصادر التاريخية العربية التي اخترعتها، وانتشرت بعد ذلك عند الأوربيين. وتقول بأنه من يقول بوجود الأثر المغربي فهو جاهل بخصائص العمارة السودانية، فهي تحاول أن تقنعنا بأنها تريد الدفاع عن أصالة الفن المعماري السوداني، وتتهم هذه المصادر العربية بأنها تسعى إلى إثبات عجز السودانيين على بناء شيء غير الأكواخ الصغيرة⁽²⁾. لكنها في المقابل لم تقدم لنا ولا دليل مقنع عن ادعائها سوى ذكر آراء المؤرخين الأوربيين الذين شككوا في دور الساحلي، فهي تستشهد بكلام شارل مونتاي (Charles Monteil)، لكن هذا الأخير لا ينكر وجود شخصية الساحلي، ولا ينفي ما قام به، لكنه ينسب للساحلي بناية واحدة وهي قاعة الاستقبالات في العاصمة نياني⁽³⁾.

كما نستشهد بما كتبه الدكتور الألماني هنري بارث (Henri Barth) وتقول بأنه يشكك في أسطورة الساحلي، لكننا لو عدنا إلى ما كتبه هنري بارث لوجدنا بأنها أولت خطأ كلام بارث بما يدعم فكرتها المسبقة، حيث لو رجعنا إلى ما قاله الدكتور الألماني فنجد ما يلي: «إن تمبكتو التي يبدو أنها استسلمت بدون مقاومة للفتح (أي منسا موسى) تحولت إلى عاصمة لإمارة ذات عظمة ومكانة، لأن الزعيم الجديد، وهو رجل حيوي وصديق للفنون زود المدينة بمسجد وقصر جديد»⁽⁴⁾.

لهذا فنحن نعارض ما وصلت إليه الباحثة سوزان ارادون فبارث لم ينف ولم يشكك في شخصية الساحلي كما تدعيه الأستاذة أراديون، بل لم يذكرها أصلا، ولكنه ينسب بناء المسجد

⁽¹⁾ Trimingham (Spencer), Op.Cit, p69.

⁽²⁾ Suzan B.Aradeon: Al-Sahili (The historians Myth. of architectural technology transfer from North Africa. In Journal des Africanistes. Année1989, Volume 59, N°01, p99

⁽³⁾ Charles Monteil, Les empires du Mali, p86.

⁽⁴⁾ Henri Barth , Voyage en Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 a.Traduction de l'Almand par :Paul Ithier. Edité par :A.Bohné, librairie Paris, et A. Lacroix, Bruxelles, 1861, tome4, 1855 pp14, 15.

والقصر في تمبكتو لمنسا موسى على أساس أنه هو الإمبراطور صاحب الأمر والنهي، وصاحب السلطة التنفيذية في مالي، فلم يذكر من نفذ أوامره بالبناء، لكنه في المقابل نرى هناك تطابق كبير مع ما ذكره السعدي الذي يقول بأن منسا موسى بنا مسجد وقصر تمبكتو بعد ضمها إلى مملكته عند عودته من الحج سنة 1326م/726هـ⁽¹⁾.

كما يذكر بأن هذا الإمبراطور كان صديقا للفنون، ونحن نعلم بأن ولعه بالفن هو ما جعله يتقرب من هذا المهندس الشاعر، ويصرّ على جلبه إلى بلاده. ومن الشواهد التي استندت إليها الأستاذة في نفي الأثر المغربي في العمارة السودانية كلام موريس دولافوس، لكننا نجد هنا تناقض مع ما ذهبت إليه، فهي تقول بأن دولافوس قد أشار إلى أن منسا موسى هو الذي طلب من الساحلي إدخال النموذج السوداني إلى العمارة السودانية وأن هذا الأخير (أي الساحلي) استوحى تفاصيلها من النموذج المغربي.⁽²⁾

وبذلك يمكن أن نستنتج بأن ما ذهبت إليه الأستاذة سوزان أراديون لا يقوم على أية أسس علمية، ويبقى مجرد أحكام مسبقة خاطئة وتنفيذ لأحداث تاريخية أكدتها كل المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية⁽³⁾. فالمصادر العربية لم تنكر وجود عمارة سودانية، ولكنها تعترف بأنها كانت بسيطة وتفتقد إلى الرقي الذي وصلت إليه العمارة المغربية، وما إصرار منسا موسى على جلب المهندس الغرناطي إلى بلده إلا لمهمة البناء.

صحيح أن البناء الأول الذي قام به أبو إسحاق الساحلي والمتمثل في مسجد مدينة غاو كان باقتراح من الأمير الموحد المعمر، لكن البناءات الأخرى التي أقامها في كل من تمبكتو ونياني كانت بطلب من منسا موسى. وهو ما يعني افتقاد مالي لمن يتقن هذا الفن، كما أن انبهار الملك منسا موسى بالانجاز الذي قام به الساحلي من خلال بنائه لتلك القبة المربعة بقصره في نياني، والسخاء

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 7 و 87.

(2) Suzan B. Aradeon, Op.cit. pp99, 100.

(3) Raimbault (Michel) et Kléna (Songo), Recherches archéologiques au Mali. Éditions Karthala, Paris, 1991.

الذي أبداه في مكافأته عليه لدليل على عدم وجود عمارة في مالي بذلك الرقي والإتقان، خاصة وأن ابن خلدون قد أكد ذلك بقوله: « لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل»⁽¹⁾.

3 - المراسلات العلمية بين حواضر غرب إفريقيا و دورها العلمي و الثقافي :

من بوادر النهضة العلمية التي شهدتها الحواضر العلمية و الثقافية في غرب افر يقيا تلك المراسلات التي تمت بين علماء و دعاة المنطقة و علماء و مصلحين من المشرق و المغرب الإسلاميين حول مسائل فقهية أو عقدية أو غيرها، بالإضافة إلى المبعوثون في مهام تعليمية إلى الحجاز و مصر. فلقد كانت هذه المراسلات تهدف إلى توجيه الدعاة و تدعوهم إلى المنهج القويم و السليم، كما تدعوهم إلى تصحيح الأفكار و العقائد و الممارسات المنحرفة الحاصلة في الدين ، كما تبين لهم طرق التعليم و مناهجها و سبل حل الخلافات بين المسلمين و آثارها السلبية على الأمة الإسلامية.

و من أشهر هذه المراسلات رسالة الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي لسلطين بلاد التكرور عموما و بلاد كاتسينا في الهوسا خصوصا، و قد ضمنها الوصية بتقوى الله و الشناء عليه والتذكير بالآخرة، و عدم الاغترار بالدنيا و زينتها، و الوقوف إلى جانب الشريعة و إنكار المخالفات الشرعية التي انتشرت في بعض بلادهم².

و ذكر محمود كعت في تاريخ الفتاش أن الأسقيا محمد توري لما كان عائدا من الحج التقى بمصر بالسيوطي سأله عن قضايا فكانت إجاباته موافقة لإجابات علماء السودان الغربي الذين كان الأسقيا قد سألهم مثل محمد بن عبد الكريم المغيلي³. كما كانت للسيوطي مراسلة أخرى للمغيلي شملت تحريم علم المنطق بينما رد عليه المغيلي برسالة يحلل فيها المنطق و يرد عليه و ختمها بقصيدة شعرية في هذا الرد⁴.

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 268 .

(2) هارون المهدي ميغا، المراسلات العلمية و آثارها التعليمي، و الدعوي بغرب إفريقيا، مجلة قراءات افريقية، العدد الثالث، ديسمبر 2008م، ص 3.

(3) محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص ص 6،7،8.

(4) احمد بابا التبيكتي، نيل الابتهاج في تطريز الديقاج، مصدر سابق، ص 332.

و في السودان الأوسط فقد جرت مراسلات بين الشيخ محمد الأمين كانمي سلطان كانم والشيخ عثمان دان فوديو خليفة المؤمنين بسوكوتو، حيث دارت مواضيع المراسلات بينهما حول حكم الجهاد في بلاد الهوسا و كانم بورنو، علما بأن الكانمي درس في المدينة المنورة والقاهرة و فاس، وذاع صيته ببلاد السودان الأوسط، و أصبح له تأييد و نفوذ و تأثير كبير على الناس، و كان يرى بأن لجو الشيخ عثمان دان فوديو إلى الجهاد في صفوف المسلمين الذين كانوا خاضعين للممالك الوثنية يضر بالمسلمين و ينحرف عن رسالة الإسلام الحقيقية، بالاضافة إلى واجبه للدفاع عن بلاد كانم بعدما احتلتها قوات عثمان دان فوديو فكانت بينهما حروب بالبنادق و السيوف و حروب بالقلم عن طريق المراسلات التي حملت مناظرات علمية ودينية. فلقد بلغت تلك المراسلات عشرات الرسائل و دامت ست سنوات دافع فيها كل واحد منهما عن موافقه، و لقد ساهمت تلك المراسلات بينهما في تصحيح الكثير من المفاهيم مستندين إلى الكتاب و السنة¹.

(¹) هارون المهدي ميغا، المراسلات العلمية، مرجع سابق، ص6.

المحور الثاني

مظاهر الحياة الثقافية والعلمية في الحواضر الإفريقية:

2. مؤسسات التعليم:

بعد انتشار الإسلام في غرب إفريقيا و قيام دول سودانية اسلامية مثل غانة و مالي و سنغاي، تحولت تلك المراكز التجارية و السياسية إلى مراكز علمية بعدما اقيمت بها مساجد تحولت إلى جامعات و مراكز إشعاع علمي، حيث استقطبت العلماء و الطلبة من كل بلاد السودان، حيث ذكر السعدي انه بعدما اسلم سلطان جني الذي يدعى كمبر حضر إسلامه 4200 عالم كانوا موجودين في مدينة جني⁽¹⁾، و هو رقم كبير يدل على أهمية المدينة من الناحية العلمية. و لو أن المقصود بالعالم عند السعدي هو معلم الصبيان، أي حتى معلم في الكتاتيب كان يطلق عليه اسم عالم⁽²⁾.

إن هذا العدد من المعلمين و القراء المنتشرين في أرياف و مدن مملكة جني يدل أيضا على انتشار التعليم و الاهتمام به خاصة في عهد الاسقيين و هو الفترة التي كان يقصدها السعدي بالدراسة. فالتعليم كان موجودا حتى في الفترات السابقة أي فترة حكم سوندياتا كيتا⁽³⁾، خلال القرن 13م، أين كان يتم عن طريق الكلمة فقط، أي عن طريق الرواية الشفوية التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وتتوارثها الأجيال وتلقن عن طريقها العلوم والمعارف⁽⁴⁾.

(1) السعدي(عبد الرحمان)، تاريخ السودان، طبعة هوداس، باريس، 1964، ص12.

(2) عز الدين عمرو موسى، دراسات إسلامية غرب افريقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م، طبعة ثانية، ص115.

(3) اذا اخذنا برواية كل من ابن خلدون و دولافوس فسوندياتا يكون قد عاش بين 1190 و 1262م، ذلك أن دولافوس يقول بانه ولد سنة 1190، و انه تولى الحكم سنة 1235 أي بعد انتصاره على الصوصو في معركة كيرينا، بينما يقول ابن خلدون انه حكم 27 سنة، و بهذا تكون فترة حكمه بين 1190 و 1262م.

(6) Devey (Muriel) , La Guinée ,Editions Karthala, Paris, 2009.p285.

لكن مع ظهور الممالك السودانية الإسلامية، و ظهور ذلك الجيل من الملوك الحجاج واحتكاكهم بالحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق، بدؤوا يتعرفون على الطرق التعليمية الجديدة، وأخذوا ينقلونها إلى إمبراطوريتهم التي كانت تتهاياً لأن تكون إحدى أقطاب الثقافة العربية الإسلامية⁽¹⁾.

وكان التعليم في البداية يقتصر في أول الأمر على الأساتذة العرب والبربر القادمين من المغرب الإسلامي، وبعد مدة تكونت طبقة من المعلمين السودانيين الذين تخرجوا من مختلف المدارس المشرقية والمغربية، وكان دورهم في البداية يقتصر على تعليم الملوك القرآن وبعض شرائع الإسلام واللغة العربية، وكانوا يتلقون مكافآت على ذلك⁽²⁾، ثم تطور التعليم ليشمل علوم أخرى، و مستويات اعلى.

و كانت مؤسسات التعليم في حواضر غرب إفريقيا تمتاز بظاهرة عامة و هي ارتباطها الشديد بالدين، حيث كانت في البداية المدارس مرتبطة بالمساجد و ملحقة بها، فالي جانب كل مسجد كان هناك غرفة او غرفتان لتعليم الأولاد، و هناك أمكنة أخرى لبيت فيها الطلاب القادمين من البلاد البعيدة، و هناك مساجد خصصت كلها لتلقي العلم كانت تعقد فيها حلقات لمختلف العلوم الشرعية³.

2. مراحل التعليم:

مع ظهور الحواضر الكبرى في عهد امبراطورية مالي و سنغاي ظهرت معه المؤسسات التعليمية الكبرى ذات المستوى العالي مثل جامع جنجربير و سيدي يحي في تنبكتو و جامع سنكاري في مدينة جني، حيث كانت تمر بمراحل تعليمية تبدأ من الابتدائية إلى غاية المرحلة العليا التي يتخرج منها الطالب عالماً.

أ. مرحلة التعليم الابتدائي (الكتاتيب):

(1) نور الدين شعباني، دور عائلة كيتا في مملكة مالي الإسلامية و علاقاتها الخارجية بين القرنين 5 و10 هجريين، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2012، 2013، ص 279.

(2) قداح نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية. الشركة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة ثانية، 1975م، ص 160.

(3) نفسه، ص ص 158 . 159.

قبل الحديث عن هذه المرحلة، تجب الإشارة إلى أنّ عملية التعليم تختلف جزئياً بين الأقطار الإسلامية، وقد أوضح العلامة ابن خلدون ذلك في مقدمته عندما تحدث عن تعليم الأولاد واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية، حيث قال: “إنّ تعليم الأولاد للقرآن الكريم شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ورجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق إلى القلوب من رسوخ في الإيمان وعقائده من آيات القرآن، وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات... واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للأولاد باختلافهم، باعتبار ما ينشأ من ذلك التعليم من الملكات⁽¹⁾.”

وتعد المرحلة الابتدائية أساسية للطلاب، حيث تستقبل الأطفال منذ نعومة أظفارهم، وتلقنهم تهذيباً دينياً سليماً يتزودون فيها بمعرفة مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظ لهم القرآن الكريم وتدرس لهم اللغة العربية حتى يتمكنون من كتابتها، كما كانوا يدرسون بعض المواد العلمية⁽²⁾، وعادة ما تضم هذه المرحلة الطلاب صغار السن، بداية من سن الخامسة حتى مرحلة الصبا، وكانت مدة بقاء الطالب فيها تراوح بين الخمسة والستة أعوام في المتوسط؛ يحفظ فيها أجزاء من القرآن الكريم، ويتقن فن الكتابة والخط، ويلمّ بمبادئ اللغة العربية.. وكل ذلك يتم عن طريق الكتابة على الألواح الخشبية. إنّ هذه المرحلة من التعليم تقوم بها الكتاتيب، وقد اختلفت مسمياتها في إفريقيا الغربية باختلاف قبائلها؛ فقبيلة الولوف تطلق عليها اسم “دارا”، وقبائل بلاد شنقيط (موريتانيا) يعرفونها بـ “المحظرة، أما قبائل التكرور فيدعوها “ديا لجانتي”، في حين تسمي قبائل أخرى معلم الكتاتيب “معالم”، وهو تحريف للفظ معلم⁽³⁾.

أما نظام التعليم فقد كان يتميز بالصرامة الشديدة، وكثافة البرامج، حيث كان في جني مثلاً يخرج المعلم من بيته إلى المسجد في منتصف الليل، فيبدأ الحصة ويجلس حوله الطلبة، فيتابعون الدرس إلى

(1) عبد الله عيسى، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16، مجلة البيان الإلكترونية، العدد 228، موقع الكتروني: <http://www.albayan.co.uk>. تاريخ الاطلاع عليه: يوم الخميس 22 جمادى الأولى 1439 هـ - الموافق لـ 2018 /02/08م

(2) باري (محمد فاضل) وكريديّة (سعيد إبراهيم)، المسلمون في غرب إفريقيا، تاريخ وحضارة. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م، طبعة أولى، ص 105 .

(3) حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الثاني، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، ص 263.

غاية صلاة الصبح، ، وعند نهاية الصلاة يعودون إلى أماكنهم إلى غاية منتصف النهار أين يعود المعلم إلى بيته، ثم يعودون إلى الدراسة بعد صلاة الظهر، وتنتهي الحصة مع صلاة العصر⁽¹⁾. كما كان الآباء يحرصون على حفظ أبنائهم للقرآن وكانوا يعاقبون أبناءهم عليها أشد العقاب كما يخبرنا بذلك ابن بطوطة⁽²⁾. وكان الفقيه الحاج التمبكتي، الذي تولى القضاء بتمبكتو في أواخر عهد دولة مالي كان قد أصدر أمر بقراءة نصف حزب من القرآن بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري⁽³⁾.

ب. مرحلة التعليم الثانوي:

فكان يتخصص فيها الطالب لدراسة علوم القرآن وتفسيره، بالإضافة إلى دراسة مواد أخرى مثل الفقه والحديث والفكر الإسلامي والأخلاق الإسلامية والأدب العربي، كما كانوا يدرسون الطب والجراحة وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغات والتجارة⁽⁴⁾. بعد ذلك يتدرج الطلبة في مناهج أخرى لتشمل حلقات درس وندوات تجري فيها مناقشات فقهية، وفلسفية حيث يُدرّس لهم منطق أرسطو ومقامات الحريري⁽⁵⁾. كما كانوا يدرسون الفقه المالكي لخليل بن إسحاق⁽⁶⁾.

وكانت دراسة النحو تقوم على الاستنتاج، إذ يقرؤون النص الأدبي ويناقشونه من خلال بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة⁽⁷⁾. بعد ذلك تأتي المراحل العليا من التدريس في تمبكتو وفاس والقاهرة وهو ما يعادل التعليم الجامعي، حيث يتم التدريس في هذه المرحلة على أساتذة مرموقين في مجال التعليم الإسلامي، هنا يصبح المنهاج أكثر تخصصاً وعمقاً في البحث، حيث كان الأستاذ يطرح على الطلبة مسائل تتعلق بشتى المواضيع، وكان على الطالب تقديم حلول لها مدافعا عن رأيه بالحجج والبراهين وذلك أمام عدد من زملائه الطلبة وأساتذته، كما يتدربون خلال هذه المرحلة على تزكية النفس ليكونوا نموذجاً صالحاً للأجيال المقبلة. أما التخرج فيتم بعد التأكد من تفوق الطالب في المعرفة

(1) (Cuoq Joseph), Op.Cit. p91.

(2) انظر المصدر السابق، ص 691.

(3) البرتلي الولاتي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق)، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة أولى، 1981م، ص 88. - السعدي، المصدر السابق، ص 27.

(4) باري (محمد فاضل) وكريدية (سعيد ابراهيم)، المرجع السابق، ص 105

(5) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 161.

(6) (Cuoq Joseph), Op.Cit. p126.

(7) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 161.

والأخلاق الإسلاميين، فيعطى بعدها عمامة مزينة بالعقد والدوائر التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، أما العمامة فكانت ترمز إلى الحد الفاصل بين العلم والحكمة والمعرفة والخلق الحسن⁽¹⁾.

ج. مرحلة التعليم الجامعي (أو العالي):

تختلف هذه المرحلة كثيراً عن مرحلة التعليم السابقة لها، فهي تعادل ما يُطلق عليه في يومنا هذا المرحلة الجامعية، و الدراسة في هذه المرحلة تتميز بالتعمق في القضايا، والخوض في المسائل التفصيلية والشروح الدقيقة التي ضمتها بعض أمهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون في ذلك الوقت. ومن أشهر المساجد التي اهتمت بالمرحلة العالية: مسجد سنكري. وتحدثنا بعض المصادر التاريخية أنَّ الأسكيا الحاج محمد كان يخصص أوقافاً لتنفق على الطلاب المتفرغين للعلم والدراسة⁽²⁾.

و كانت تتم هذه المرحلة في جوامع عديدة منها جوامع تمبكتو التي كانت ذات شهرة كبيرة وخاصة مسجدها الكبير الذي يعد أقدمها وأكبرها، وإن كنا لا نعرف تاريخ تشييده على وجه التحديد، لكن الأكيد هو أن هناك مسجد أقيم فوق موقعه خلال القرن السابع للهجرة/13م، والراجح أن بناءه لأول مرة كان في مطلع القرن السادس للهجرة /12م على وجه التقريب، أي في الفترة التي وجدت فيها مدينة تمبكتو واستقرار المسلمين فيها، وجدده فيما بعد منسا موسى عن عودته من الحج⁽³⁾.

وكان نظام التعليم في تمبكتو يتميز بمستوى عال لا يقل عن الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي أو غيره، فكانت تعقد فيه حلقات العلم يتشاور فيها الأئمة والأساتذة والعلماء فيما بينهم بين أروقة الجامعة لمعالجة المسائل التي ترسل إلى السلطات الحكومية للتقيد بها.⁽⁴⁾ أما الكتب المتداولة لدراسة بهذه الجمعة فهي نفسها المتداولة في الجامعات الإسلامية الكبرى مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، مدونة القاضي سحنون، مختصر ابن الحاجب الفرعي، تهذيب البرادعي، جمع الجوامع

(1) باري(محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم)، المرجع السابق، ص 105 .

(2) عبد الله عيسى، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16، مرجع سابق.

(3) معتز ياسين، جوامع تمبكتو في مالي. مقال صدر في مجلة الوعي الإسلامي، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد 523.

(4) باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم)، المرجع السابق، ص 105 .

القرطبية، جامع المعيار وهي كلها في الفقه المالكي، بالإضافة إلى ألفية بن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، ألفية السيوطي، صحيح مسلم والبخاري، سيرة بن هشام وتفسير الجلالين، وغيرها.⁽¹⁾ وعموما فقد كان مستوى التعليم عال جدا في جامعة تمبكتو إلى درجة أن عبد الرحمان التميمي الذي جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى، لما سكن تمبكتو وجدها تعج بالفقهاء السودانيين، ولما رأى تفوقهم عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تمبكتو فاستقر فيها⁽²⁾.

كما انتهجت جامعة تمبكتو سياسة تقوم على التبادل العلمي بينها وبين الجامعات والمعاهد في البلدان الإسلامية الأخرى في المغرب والأندلس والصحراء الكبرى، ولما كانت معاهد المغرب أعرق منها فقد حرص ملوك مالي على إرسال طلبتهم إليها، حيث قام منسا موسى بإرسال العالم كاتب موسى الذي كان إماما ومدرسا بجامع تمبكتو إلى فاس ليتلقى المزيد من العلوم الإسلامية وذلك بأمر من السلطان الحاج منسا موسى.⁽³⁾

عندما اشتهرت هذه المعاهد وفد عليها كثير من الطلبة من بقاع شتى من السودان الغربي لتلقي العلم على مشايخها ومنهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، ومن إقليم ودان وفد عليهم سيدي أحمد الغزالي بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي السوداني الذي تتلمذ على يد والد أحمد بابا التمبكتي.⁽⁴⁾ وعندما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان التقى عددا من علماء المغرب ومصر المقيمين بمالي، منهم محمد بن الفقيه الجازولي، وشمس الدين ابن نقوش المصري، وعلي الزودي المراكشي الذي قال عنه بأنه كان من الطلبة⁽⁵⁾.

كما جذبت جامعة تمبكتو بعض علماء الأندلس أمثال علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الوادي آشي (المتوفى عام 724 هـ / 1323م) وهو والد ابن الملقن التكروري (توفي

(1) معتز ياسين، المرجع السابق.

(2) البرتلي الولاتي، فتح الشكور، ص 176.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص 57. ، Yattara el Mouloud ,Op.Cit .

(4) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج في تطريز الدباج، إشراف و تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989م، جزءان، ص 608.

(5) المصدر السابق، ص 681 .

804هـ/1401م) صاحب كتاب طبقات الأولياء، وقد مارس التدريس لمادة اللغة العربية قبل أن يرحل إلى القاهرة.⁽¹⁾ وهناك بعثة تعليمية انطلقت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو كانت تضم طلبة من الونغا (لذلك سميت بالبعثة الونغارية) و كانت تضم ركائز معاهد تمبكتو، فأخذ العلماء التمبكتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو أمثال الفقيه مخلوف البلبالي، والتاذخني، ومنهم من أسس معاهد تعليمية في هذه المنطقة، مثل معهد الحنبلين في كاتسينا⁽²⁾.

وكان التعليم في جامعة سنكري يشمل المناهج الدراسية التي كانت تتضمن: التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، والعلوم العقلية، وغيرها من المعارف التي كانت تشكل في الوقت ذاته الدعائم الأساسية للعلوم الإسلامية. وقد اشتهرت جامعة تنبكت بتدريس المذهب المالكي، الذي كان يقوم بتعليمه علماء ضالعون في مادته، سواء من الإفريقيين أو الزائرين من أساتذة القاهرة وفاس، الذين كانوا يأتون لإلقاء الدروس على الطلاب الذين يفدون على هذه الجامعة من كل مكان من مناطق إفريقيا الغربية المجاورة⁽³⁾.

5. لتعليم المهني (الحرفي):

رغم قلة انتشار هذا النوع من التعليم واقتصاره على مهمة الخياطة وبعض المهن الحرفية الأخرى؛ كصناعة السيوف والحراب؛ فإنَّ التدريس في هذا النوع كان يتولاه معلمون متخصصون عُرفوا بـ “الشيخو الرؤساء”، حيث كان التدريس والعمل يتم في بيوت وفي مقر عمل شيخو المهنة. وقد ذكر المؤرخ محمود كعت أنه يوجد في مدينة تنبكتو وحدها 26 بيتاً من بيوت الخياطين، ولكل بيت من تلك البيوت شيخ معلم، وقد بلغ تلاميذهم ما بين 75 إلى 100 تلميذ⁽⁴⁾.

6. الإجازات العلمية و الشهادات:

إن شهادة التخرج أو الإجازة هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون، ويقع النطق بذلك الإقرار أو يحرر على ورقة تدفع للطالب المتخرج. و وجدت في الواقع

(1) معتز ياسين، المرجع السابق.

(2) نفسه.

(3) عبد الله عيسى، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق.

(4) محمود كعت، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس. طبعة هوداس وموريس دولافوس، المكتبة الأمريكية و الشرقية، باريس، 1964م، ص 180.

ثلاث درجات للإجازة، هي: شهادة السماع، وتعني أن الطالب تتبّع أقوال العالم وحفظها. وشهادة العرض، أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكاره النصوص ومعرفته شروحها. ثم الإجازة الكاملة، وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإمام بفن معين من الفنون.

وقد تتعدد المواضيع التي يتقنها الطالب ويكثر أساتذته فيها جميعاً، لكن الإجازة لا تعطى إلا في أحوال نادرة، أي عندما يتأكد المدرس أن الطالب متمكن من مادة أو من إتقانها إتقاناً تاماً، ويلاحظ مواظبته على تلك المادة واهتمامه بها، وأيضاً عندما يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد، وقد يكون على المجاز أن يلقي درساً بمحضر أستاذه لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي سيصدره والشهادة التي سيشهد بها⁽¹⁾.

ولا تُعطى الإجازة أو ينطق بها لأكثر من شخص واحد، فلم تكن شهادة جماعية، وقد يضم مجلس علمي مجموعة من الطلبة ويحصل كل واحد منهم على إجازة في فن مستقل متميز، ثم يبقى طالباً عادياً في فن أو فنون أخرى، ويحضر بانتظام حلقات أستاذه فيها.

وتتضمن الإجازة المكتوبة تصريحاً من المدرس بأنه حضر عليه مواد متعددة لكنه برع في مادة خاصة، ولذلك فهو يجيزه في جميع ما يجوز له إن كانت للمدرس كتب من تأليفه، وما يجوز له من غيره إن كان الكتاب من وضع شخص آخر. ومما يدل على مدى تحري الأساتذة وحرصهم على الإنصاف ما جاء في إجازة أحمد بابا عن أستاذه محمد بن محمود بغيغ، وما تضمنته إجازته على يد أحمد المقرئ في مصنفات الأحاديث النبوية الستة بعد أن رواها كلها بالسند السوداني المتصل بروايات واضعي تلك المصنفات، وقد كتبت تلك الإجازة بمراكش في 15 ربيع الآخر عام 1010 للهجري/ 13 أكتوبر 1601م.

ولقد تشابهت الإجازات بين إفريقيا الغربية والمغرب بفضل الاتصال بين علمائهما، وبصفة خاصة بعد عودة علماء السودان المهجرين إلى وطنهم، ويمكن من مراجعة تراجم علماء تنبكتو وفقهاء المالكية السودانيين أن نميز بين نوعين من الإجازات التي أعطيت لبعض المتخرجين: إجازات

(1) عبد القادر زبادية، « القرن 16 وحركة التعليم في تنبكتو مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب »، مجلة *المفوخ العربي*، العدد 14، (1980)، ص 224.

خاصة تم فناً واحداً أو عدة فنون متحدة الموضوع، وإجازات عامة تشمل فنوناً وعلومًا متباينة، ومن أمثلة النوع الأول: الإجازات القرآنية و الحديثية، وكان يراعى فيها الاحتياط في قراءة النص والمعرفة التامة بالقراءات السبع واختلاف روايات حديث. أما الإجازات العامة فتقتضي ختم عدة مواد على النحو الذي يؤهل المجاز لرواية العلم عنه والقدرة على تبليغه للآخرين، ولم يكن ذلك متأتياً إلا لمن لزم المجالس العلمية لسنوات طويلة قد تشمل جانباً كبيراً من حياة الطالب⁽¹⁾.

5. حركة التأليف و المؤلفين:

شهدت الحواضر الثقافية في غرب إفريقيا حركة تأليف واسعة كان وراءها علماء من غرب إفريقيا تكوّن معظمهم في جامعات السودان الغربي كتبكتو و جني و غاو، و لقد شملت حركة التأليف ميادين مختلفة نصنفها كما يأتي:

أ. في التاريخ:

الشيخ القاضي (محمد بن محمود كعت)، الذي ولد عام 868هـ/1468م بمدينة تمبكتو²، وعاصر السلطان أسقيا الحاج محمد التوري، الذي عاش بين 898هـ و 925هـ، وألف كتابه المشهور في التاريخ والمعروف بـ « تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق انساب العبيد من الأحرار»، والذي بدأ بتأليفه سنة 925هـ/1519م. وكان هذا الكتاب من أهم المصادر الخاصة بتاريخ السودان الغربي في عهد الإسقيين، خاصة فيما يتعلق بتبكتو وأوضاعها، والغزو المغربي لسنغاي، وتخريب تمبكتو، وتدهور حالتها. وقد توفي محمود كعت عام 1001هـ/1593م³ وأكمل أحفاده من بعده، أحداث السنوات الست المسجلة بعد ذلك بالكتاب. وتميز كتابه بلغة سلسة، ومعلومات غزيرة⁴.

- احمد بابا التنبكتي من عائلة اقيت الشهيرة في تبكتو، كتب أكثر من 400 مؤلف، أشهرها نيل الابتهاج بتطريز الديباج و هو موسوعة تراجم لأكثر من مائة عالم في الفقه المالكي، وكذا كتاب «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» وهو مختصر كتابه الأول حيث هذبه وأضاف له حواشي

(1) عبد الله عيسى، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق

(2) بوعزيز، المصدر السابق، ص 255.

(3) نفسه، ص 199.

(4) قداح نعيم، حضارة الإسلام و حضارة اوربا في افريقيا الغربية، مرجع سابق، 161.

و أسماء أخرى كان قد أغفلها في تطريز الديباج¹، و لديه كتاب معراج الصعود في حكم مجلوب السود.

ومن المؤرخين الذين أنجبتهم بلاد السودان، عبد الرحمان بن عبد الله السعدي، الذي ولد بمدينة تمبكتو عام 1004هـ/1596م، أي بعد الغزو المغربي لمملكة سنغاي الذي حدث عام 999هـ/1591م، وعاش في ظل الحكم السعدي لتمبكتو، حيث عينه الباشا محمد بن عثمان حاكم تمبكتو سنة 1646م ناظرًا لخارجيته، فسمح له ذلك المنصب بالتنقل في أنحاء المملكة، فألف كتابه المشهور (تاريخ السودان)، الذي أتمه عام 1063هـ/1655م فكان هذا الكتاب أفضل متمم لتاريخ الفتاش عن تاريخ السودان.

كما عرفت مملكة كانم بورنو حركة تأليف مهمة جدا في التاريخ لعل أهمها مؤلفات احمد بن فرتيوا البرنوي و هو مؤرخ البلاط في إمبراطورية كانم الذي ألف كتاب (تاريخ مي إدريس ألوما وغزواته) وقد كتب هذا التاريخ على حدّ قوله تبعاً لما يراه من تأليف الشيخ الفقيه مسفرمه عمر بن عثمان في عصر سلطانه الملك العادل. وقد ترجمه المؤرخ الألماني بالمر(Palmer) إلى الإنجليزية.

ومنها كتاب (ديوان سلاطين كانم) لمسفرمه عمر بن عثمان السابق الذكر، يضمّ هذا الديوان أهمّ الوثائق، وأسماء السلاطين في إمبراطورية كانم برنو الإسلامية القديمة، ومنها غزوات كانم، وكتاب « أخبار أصل فلات برنوي » وغيرها².

ومن أهمّ الوثائق التاريخية في البرنو الإسلامية « المحارم »، وهي المراسيم التي كان يصدرها الحكام في حق العلماء، وقد استفاد المؤرخون منها، الأمر الذي جعل المؤرخ الألماني بالمر يترجمها إلى الإنجليزية في كتابه (صحارى برنو The Borno Sahara)، كما ترجم عدداً غير يسير من

(1) ليلي صباغ، أحمد بابا التكروري (963-1036هـ/1556-1627م)، موقع الكتروني:

<https://www.arab-ency.com/ar>

(2) د. آدم أديبايو سراج الدين ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية بين الأدب والتاريخ، مجلة قراءات افريقية، مجلة ثقافية فصلية محكمة متخصصة في شؤون القارة الإفريقية تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد الخامس عشر، محرم - ربيع الأول 1434 هـ ، يناير - مارس 2013 م، ص 82 و ما بعدها

الرسائل العربية البرنوية والمعاهدات، وبعض القصائد في كتابه الثاني تحت عنوان «مذكرات سودانية Sudanese Memoirs» الذي يقع في ثلاثة أجزاء¹.

فالقيمة التاريخية في هذه الآثار العربية البرنوية لا شكّ فيها، وإن تضاؤل هذه الآثار العربية الثرية في الإيفاء بشروط تدوين التاريخ على حدّ مفهومها المعاصر؛ لا يُخرج أولئك العلماء من كونهم مؤرّخين؛ لأن الاستفادة مما خلفوا من المعلومات.

ب. في الأدب:

تعتبر اللغة بالنسبة لأيّ شعب، بمثابة الوعاء الذي يحمل ثقافته وإنتاجه الأدبي والفكري، لكن اللغة العربية تمتاز بالإضافة إلى كل ذلك، بأنها أداة للصناعة الأدبية، والبلاغة التي ارتبطت بحضارة العرب قبل الإسلام، ثم جاء القرآن ليجعل منها معجزة جمعت جمال الكلمة، وبلاغة القول، وحملت رسالة إنسانية عظيمة، فكان الأدب العربي أول ما نقلته هذه اللغة أينما حلت بعد القرآن. فلم يكن للأفارقة في السودان الغربي قبل مجيء الإسلام من الآداب، سوى حكايات يتناقلها الخلف عن السلف شفهيًا، وتتمثل أغلبها في ذكر بطولات الأجداد، وأصول القبائل، والملوك وأنسابهم، بالإضافة إلى صراع الإنسان مع الطبيعة⁽²⁾.

فكان الأدب السوداني إذن، أدبا غير مكتوب، ومعظم التراث الأدبي تم الحفاظ عليه عن طريق الروايات الشفهية، إلى غاية مجيء الإسلام، واحتكاك السودانيين بالتجار المغاربة والفقهاء، وخاصة في المدن الهامة مثل تمبكتو، جاو، جني، ولاتة، وغيرها، حيث كان يلتقي العلماء والتجار والقضاة، فتمكن أهل السودان من تشكيل نخبة حملت آداب اللغة العربية³. وقد سبق وأن ذكرنا البلاغة التي ميزت الأديب الكانمي، أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب الأسود، وشعره الذي قاله عند ملاقاته أبي يوسف المنصور الموحد.

(1) زيادة، المرجع السابق، ص 77.

(2) نفسه.

إن المتصفح لتاريخ اللغة العربية وآدابها في هذه البلد؛ يعرف أن بعض العلماء والرجال على مرّ عصورها قد أسهموا في ترقية العربية وتطويرها في إفريقيا، وتركوا أنواعاً كثيرة من الكتابة، مثل الرسائل الديوانية بين العلماء، والوثائق الرسمية بين رجال الحكومة، وبعض الوثائق التاريخية، ومن الممكن تقسيم هذا الفن الأدبي (النثر) الذي أنتجه علماء هذه الديار إلى فنيّ وعلميّ، فالأول استعملوه في رسائلهم، والثاني في تأليفهم.

أما النثر الفنيّ؛ فخير مثال على ذلك الرسائل المتبادلة بين أهل الفودي وبين فارس الكانم الشيخ محمد الأمين الكانمي، ونورد هنا نصّاً من رسالته إلى الزعيم الفلاني الشيخ عثمان بن فودي، قال فيها: « من المتعزّز بتراب الذنوب، والمتدنّز بجلباب العيوب، العبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي إلى العلماء الفلانيين ورؤسائهم، السلام على من اتّبع الهدى، أما بعد، فالباعث لرسم هذا المزبور، أنه لما ساقطني المقادير لهذا الإقليم؛ وجدتُ نار الفتن بينكم وبين أهل الوطن موقودة، فسألْتُ عن السبب، فقيل: بغي وقيل: سنّة، وتخيّرنا في الأمر، فكتبْتُ لإخوانكم المجاورين لنا وثيقةً، طلبتُ منهم بيان السبب والدليل على الجواز، فأجابوني بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل، فضلاً عن عالم، فضلاً عن مجدّد، وعدّوا فيه أسماء كتب لنا اطلاع على بعضها، لكن لم نفهم منها ما فهموه¹.

ومن أمثلة الرسائل الديوانية كذلك؛ رسالة ملك برنو إلى السلطان الظاهر البرقوق في القاهرة سنة 894 هـ تقريباً، والتي ورد فيها ما يأتي: « بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً: الحمد لله الذي جعل الخط تراسلاً بين الأبعد، وترجماناً بين الأقارب، ومصافحة بين الأحياب، ومؤنساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات، وفسدت الحاجات، ومن المتوكّل على الله تعالى، الملك الأجلّ المستنصر بالله، المنصور في كلّ حين وأوان، ودهر وزمان، الملك العادل، الزاهد التّقيّ النّقي، الأجد والأجد الغشمشم، فخر الدين، زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور، مصباح الظلام، أبي عمرو عثمان الملك ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرّم الله ضريحه، وأدام ذرية هذا ملكه؛ إلى ملك المصر الجليل، أرض الله المباركة، أم الدنيا، سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر، وأعذب من ماء الغمام.. زاد الله ملككم وسلطانكم، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن والعلوم،

(1) آدم أديبايو سراج الدين، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية بين الأدب والتاريخ، مرجع سابق، ص85.

وجماعتكم وأهل طاعتكم أجمعين. وبعد ذلك؛ فإننا قد أرسلنا إليكم رسولنا، وهو عمّي، واسمه إدريس بن محمد، من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا، فإن الأعراب الذين يُسمّون جذاما وغيرهم، قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعاف الرجال، وقرابتنا من المسلمين»¹.

وإذا ألقينا نظرة على ما أوردناه من مثال للإنتاج الهلمي باللغة العربية لعلماء كانم برنو؛ يتضح أن هؤلاء العلماء قد أسهموا بقدر الإمكان في التأليف العربي، وتناولوا فيه مواضيع شتى، مع هذا فمن الأحسن أن ننتبه إلى سؤال قد يطرح نفسه على الدارس المدقق، وهو أنه إذا كان لعلماء كانم برنو. تراث عربي².

ج. العلوم الشرعية و العقلية:

من أشهر علماء غرب إفريقيا تأليفا في هذا المجال و خاصة خلال القرن 16م نذكر احمد بابا التنبكتي الذي ترك لنا حوالي 40 كتاب، حيث عبر عنها بقوله: « وألفت عدة كتب تزيد على أربعين تأليفا: كشرحي على مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح ممزوجا محرراً، وحواشي على مواضع منه، والحاشية المسماة من الرب الجليل في مهمات تحرير خليل يكون في سفرين، وفوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح للسيوطي»³.

وله كتاب فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، والزند الوري في مسألة تخيير المشتري، و ايضا تنبيه الواقف على تحرير نية الحالف ، كما كتب تعليقا على أوائل الألفية سماه النكت الوفية بشرح الألفية، ونيل الأمل في تفضيل النية على العمل، وغاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة في كراسين، وآخر سماه "النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة، وما رواه الرواة في مجانبة الولاية، بالإضافة إلى شرح الصغرى للسنوسي، ومختصر ترجمة السنوسي، ونيل الابتهاج بتطريز الديقاج، و "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديقاج" اختصر فيه "النيل"، وحمائل الزهر فيما ورد من كفيات الصلاة على سيد البشر، والدرر النصير في ألفاظ الصلاة على البشير، وسؤال وجواب في جواز الدعاء باللهم ، وشرح الصدر وتنوير القلب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من ذنب، والكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، المناقب الفاخرة في أسماء سيد الدنيا والآخرة،

(1) آدم أديبايو سراج الدين ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية ، مرجع سابق،ص 87.

(2) نفسه

(3) جمال بامي، احمد بابا التنبكتي، موقع الكتروني: <https://www.maghress.com/almithaq/6676>

والمنهج المبين في شرح حديث أولياء الله الصالحين، والبدور المسفرة في شرح حديث الفطرة، وفتح الصمد الفرد في معنى محبة الله تعالى للعبد، نزول الرحمة في التحديث بالنعمة، ودرر الوشاح في فوائد النكاح وهو مختصر لكتاب الوشاح للسيوطي، ونيل المرام ببيان حكم الأقدام على الدعاء لما فيه من إيهام وهو مأخوذ من مسودة تأليفه فتح القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير، وتحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء ومختصره مرآة التعريف في فضل العلم الشريف، ودرر السلوك بذكر أفاضل الخلفاء الملوك، وأجوبة الأسئلة المصرية، وله أسئلة في المشكلات¹.

و خلال القرن 19م ألف الشيخ عثمان دان فوديو في بلاد الهوسا أكثر من مائة كتاب في العلوم الشرعية و الجهاد و السياسة أشهرها كتاب « إحياء السنة و إخماد الفتنة » و كتاب « السنة و إخماد البدعة » الذي تطرق فيه إلى عدة مسائل تتعلق بالشرع و أركان الإسلام من صلاة و صيام و حج و زكاة، و آداب الطعام و ميراث نكاح و بيوع . و كتاب عنونه ب «وثيقة الإخوان لتبيين دلالة وجوب إتباع السنة و الإجماع » ، كما كتب أخوه عبد الله في الأدب و الفقه أشهرها كتابه ضياء السياسات و فقه النوازل².

ج - أثر الحياة العلمية على تطور غرب إفريقيا .

إن ازدهار الحياة العلمية في أي مجتمع سيتبعه حتما ازدهارا في مختلف المجالات المحيطة بالحياة، فالمجتمع في غرب إفريقيا تأثر كثيرا بتلك النهضة العلمية و الثقافية التي شاهدها حواضره، فكانت التنظيمات و الفنون نموذج عن طبيعة المجتمع، لذلك رأينا انه حدث تحول هام في التنظيمات السياسية و العمرانية و الفنية التي أصبحت هي الأخرى نسخة من مظاهر الحياة الثقافية عموما و التي صبغت بالصبغة العربية الإسلامية.

1 - أثرها في نظام الحكم والعمران .

أ. في نظام الحكم:

(1) جمال بامي، مرجع سابق.

(2) بوبكي سكينه، الحركة العلمية بالهوسا في السودان الغربي خلال القرن 19م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامي، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2008/2009م، ص ص من 72 الى

ان انتشار الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا أثر تأثيرا مباشرا على نمط الحياة السياسية للشعوب السودانية، فقد نقلها من نظام القبلي ضيق، الذي يقوم على أساس المشيخات يحكمها رؤساء العشائر ، و من نظام سياسي يقوم على اساس وثنى يرتكز على طقوس السحر و التنجيم ، إلى نظام سياسي يقوم على الدولة، التي تتضمن إدارة وحكومة ونظاما سياسيا¹.

حيث تأثر ملوك غرب إفريقيا بالنظم الإسلامية، القائمة في المشرق و المغرب المسلمين، حيث أصبحوا يقلدون الأمراء المسلمين الذين تأثروا بهم من خلال النماذج التي احتكوا بهم من خلال زيارتهم المتكررة إلى الحج، وكذا الأخبار التي كانت تصلهم عنهم من خلال التجار المسلمين الذين كانت أسواق مالي كتمبكتو، ولاته وجني تعج بهم. بالإضافة إلى احتكاكهم بالعلماء المسلمين، حيث تجسد التأثير العربي الإسلامي في نظام الحكم غرب الإفريقي في المظاهر التالية:

ت. نظام الخلافة:

يعد نظام الخلافة، أهم مظهر يميز النظام السياسي الإسلامي، حيث يرتكز على السلطة المركزية التي يتولاها أمير المؤمنين الذي تؤخذ له البيعة من الرعية، ويخطب باسمه في صلاة الجمعة و الأعياد، وتضرب باسمه الأختام، ويتخذ من الشريعة الإسلامية منهاجا ودستورا لحكمه.

لذلك حاول ملوك غرب إفريقيا الإقتداء بهذه المواصفات، لإعطاء نظام حكمهم صبغة شرعية، بعد أن أصبحوا ينتمون إلى العالم الإسلامي. فكان أهل (سنغاي) إذا ولي منهم ملك، قدم إليه خاتم وسيف ومصحف، يزعمون أن الخليفة الفاطمي أمير المؤمنين قد بعث به إليه²، لكن دون أن تذكر المصادر التاريخية اسم الخليفة الفاطمي بالتحديد. مما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن ذلك مجرد زعم القصد منه ادعاء التولية من طرف أمير المؤمنين، وبالتالي إعطاء حكمهم صفة الشرعية التي توجب الطاعة من طرف الرعية.

ولما كان عهد الإسقيين في مملكة سنغاي، ازداد حرص ملوك جاو على كسب المزيد من الشرعية الدينية لحكمهم، من خلال محاولة افتكاك لقب الخليفة وأمير المؤمنين، وعدم الاكتفاء بلقب والي الخليفة. حيث استغل ملك سنغاي الإسقيا الحاج محمد التوري سقوط دولة المماليك على يد جيش

(1) العمري (أحمد السويلم)، العمري (أحمد السويلم)، الإفريقيون والعرب لقاها، 1967م، ص66.

(2) البكري، المصدر السابق، ص182.

سليم الأول العثماني، في معركة مرج دابق في رجب من عام 922هـ/1516م، و الريدانية في محرم من عام 923هـ/1517م¹، ليأخذ الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين، وهو المتوكل الثاني عبد العزيز بن يعقوب².

فخلال زيارة الحاج محمد أسقيا للبقاع المقدسة بغرض أداء مناسك الحج في أواخر عام 900 للهجرة، مر بمصر، وكانت الخلافة آنذاك ما تزال للعباسيين قبل أن يأخذها منهم السلطان العثماني سليم الأول عام 923هـ/1517م، وهناك بمصر اجتمع الحاج محمد أسقيا بالخليفة العباسي المتوكل، وطلب منه أن يأذن له في إمارة بلاد السودان، ويكون خليفة عليها هناك، فجعله الخليفة العباسي نائبا له على من وراءه من المسلمين ببلاد السودان. ولما عاد ملك سنغاي إلى بلده، أقام حكمه على قواعد الشريعة الإسلامية³.

ويذكر المؤرخ السوداني محمود كعت، أن الحاج محمد أسقيا لما زار مكة، وكان جالسا بجذاء الكعبة مع شريف مكة مولاي العباس الحسني، أخبره هذا الأخير بأنه الخليفة الحادي عشر من الخلفاء الذين اخبر عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وطلب منه أن يتخلى عن صفة الملك، و ذلك بطرد جميع وزرائه عنه، والتخلي عن جميع آلات السلطنة وأموالها، ووضعها بين يدي العباس، وبعد ثلاثة أيام، خرج إليه مولاي العباس و كان يوم الجمعة، ونادي الحاج محمد أسقيا، وأجلسه بمسجد مكة الشريفة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء، وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفاً، وأشهد الجماعة الحاضرين على أنه خليفة بأرض التكرور، وأن كل من خالفه فقد خالف الله تعالى ورسوله⁴. كما يروي القاضي محمود كعت أيضا، أن الأسقيا محمد التوري، لما كان عائدا من الحج في طريقه إلى السودان، التقى بالإمام جلال الدين السيوطي بالقاهرة، واخبره هذا الأخير، بأنه يعد من بين اثني عشر خليفة أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم. خمسة منهم (يقصد الخلفاء الأربعة مع الحسن بن علي) ظهوروا بالمدينة، واثان بمصر، وواحد بالشام، واثان بالعراق، ولم يبق منهم إلا اثنان بأرض

(1) طقوش (محمد سهيل)، التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، 2002، ص 359.

(2) التازي (عبد الهادي)، المغرب في خدمة التقارب الإفريقي العربي. في كتاب: *العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الإفريقية*، الصادر عن المنظمة العربية للثقافة و العلوم، تونس، 1985م، ص 106.

(3) السلاوي، المصدر السابق، ص 48.

(4) المصدر السابق، ص 12.

التكرور، و أن الحاج محمد أسقيا يعد واحد منهما¹. كما أخبره، بأن الخليفة الثاني عشر، والذي سوف يأتي من بعده في بلاد التكرور، ينتمي إلى نفس قبيلته التي تنتسب إلى (الطوردو)² الذين تعود أصولهم الأولى اليمن، وأن عاصمته تكون كوكو (جاو)³.

غير أننا لا نجد أثرا لهذين الخليفتين السودانيين في كتاب (تاريخ الخلفاء)، الذي ألفه السيوطي، والذي يشمل تاريخ خلفاء المسلمين، مما يجعل هذه الرواية المنسوبة للسيوطي تبدو غير أكيدة.

ومهما يكن، فإن الحاج محمد التوري، تصرف بعد عودته من الحج كخليفة للمسلمين، وقرر انتهاج قواعد الشريعة الإسلامية، وإتباع منهاج أهل السنة، حيث أخذ عن شيخ الإسلام جلال الدين السيوطي علوم الفقه والعقيدة، وتعلم منه الحلال والحرام، وآداب الشريعة وأحكامها، وانتفع بوصاياه ومواعظه.⁴ ومنذ ذلك الحين، أصبح الحاج محمد اسقيا، يعتبر نفسه خليفة المسلمين، وأصبح يتبع منهاج الخليفة العباسي في مجلسه، وملبسه، وسائر أموره، ومال إلى السيرة العربية، وانصرف عن بقايا سيرة العجم التي كانت عند ملوك السودان.⁵

(1) كعت، المصدر السابق، ص 13.

(2) هذه الكلمة بلغة (الفلاتة)، و تدل على شخص ينتمي إلى هيئة أو حزب أو جماعة تأسست في منطقة (فوتا جالون) والتي معناها، الأشخاص الذين يشتركون في الصلاة، وقد استعملت من طرف السودانيين للدلالة على المسلمين المخدرين من فوتا

السنغالية أو (فوتا تورو). في الهامش Houdas et Delafosse, Tarikh el Fettache, P9,

. و تعد (فوتا جالون) منطقة و هضبة موجودة حاليا في شمال غرب جمهورية غينيا، تقع بين مدينتي (لابه) و (بوكي)

الغانيتان. مجموعة من الأساتذة على رأسهم: نقولا زيادة: أطلس العالم. مكتبة لبنان، بيروت، 1417هـ، ص 13.

(4) كعت، المصدر السابق، ص 13.

(5) السلوي (أبو العباس الناصري)، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. (ثلاثة أجزاء). تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري. مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954م، ص 48.

(6) نفسه.

(7) الوزان (حسن)، المصدر السابق، ج 2، ص 169.

وقد انتشرت سيرة التشبيه بالخلفاء لدى ملوك السودان، إلى درجة أننا أصبحنا لا نفرق بينهم وبين أي خليفة عباسي آنذاك. فكان الملك يجلس في قصره الخاص، ومن حوله عدد كبير من الجواري والعبيد والخصيان والحرس والموظفين والكتاب والمستشارين والأمناء¹.

كما أصبح ملوك السودان يحرصون على أخذ البيعة من ولائهم، وفروض الولاء وجمع الخراج وغيرها². إذ أنه في عهد الإسقيين، و منذ عودة الحاج محمد اسقيا من الحج أصبح ينظم حفلا ومراسيم لتولي أي ملك جديد الحكم. ففي اليوم الذي ينصب فيه ملك جديد على سنغاي، يدخل هذا الأخير إلى القصر ويجلس على العرش، وتضرب الطبول أمامه، وتقدم إليه إشارات السلطنة، وهي عبارة عن قميص مزركش، ولباس على الرأس يشبه التاج، وأضيفت له تلك العمامة الخضراء والسيف والبردة التي كان شريف مكة قد خلعها على الحاج محمد عندما باركه خليفة على بلاد السودان، ثم يستقبل الملك الجديد الولاية، وقادة الجيش، ويصلي الظهر في المسجد، بعدها يقسم جميع موظفي الدولة الكبار، وأفراد العائلة المالكة، يمين الولاء والطاعة والإخلاص له، ويشهد على ذلك القاضي والعلماء³. كما تأثر الاسقيا محمد توري بالنصائح التي زوده بها الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بعد الأجوبة التي قدمها لأسئلته حول شؤون الحكم.

و حتى في بلاد الهوسا فقد تأثر ملوكها بالعلماء المسلمين و على رأسهم المغيلي الذي ساهم في إصلاح نظامهم السياسي، حيث قدم مجموعة من النصائح في شؤون الحكم لملك كانو محمد رمفا دونها في كتاب عنوانه بما يجب على الملوك من حسن النية، و هي مدونة لشروط الحكم الإسلامي و ما يجب ان يتصف به الحاكم المسلم، و هذا بعدما راي من انتشار التقاليد الوثنية في ممالك الهوسا، كما ساهمت شخصيات علمية أخرى في إصلاح نظام الحكم في ممالك الهوسا حيث تشير المصادران هناك شخصيات علمية ساهمت في دعم السنة و انماط العيش و الحكم الإسلامية بكانو، منهم احمد بن عمر اتقيت التنبكتي، وهو جد احمد بابا التنبكتي، الذي دخل كانو و درس بها نحو سنة 1487م، و فيما بين 1504 و1518 وصل عبد الرحمان سقين المغربي، و هو تلميذ ابن غازي

(1) Deschamps (Hubert) , L'Afrique Noire précoloniale. Presses universitaires de France, Paris, 1962, PP 52et 53

(2) . زبادية، المرجع السابق، ص 63.

المؤرخ، إلى كانوا قادمًا من مصر و درس بها، و كان زميله مخلوف البلبالي (المتوفي بعد 1434م)، نشيطا هو الآخر في حقل التعليم بكانو و كتسينة، حيث قام هذان الشخصان بنشاط تعليمي كان له تأثير في الناحية السياسية بكانو حيث قاموا بقطع الأشجار المقدسة في عهد محمد رمفة¹.

ب. الوزارة:

يعد ابن بطوطة والعمري أهم مصدرين مكتوبين تطرقا إلى أكبر قدر من التفاصيل حول الوظائف والخطط التي عرفتتها إمبراطورية مالي خلال أوج قوتها في القرن الثامن للهجرة/14م، ورغم ذلك فإننا لا نجد من بين الوظائف التي ذكروها منصب وزير.⁽²⁾ ولكننا إذا تمعنا جيدا في تلك الوظائف فإن عددا منها يوازي منصب الوزير عند العرب المسلمين آنذاك، ولكنها تعطى لها أسماء أخرى. فحسب الروايات الشفوية فإن مملكة مالي كانت تضم وظائف تعادل وظائف الوزراء في إطار مبدأ تقسيم العمل، فكان هناك وزير يتكفل بالأجانب وآخر يتكفل بالضرائب وثالث يشرف على الشؤون الدينية وغيرهم.⁽³⁾ ولكنهم في الحقيقة كانوا كلهم عبارة عن مسؤولين عن القطاعات التي كلفوا بها أمام الوزير الأول الذي يتدبه الملك بنفسه ويعدون تابعين له مباشرة.⁽⁴⁾

وربما كان هذا الوزير الأول هو النائب الذي ذكره ابن بطوطة خلال وصفه لمجلسه بالمشور، وأن الفرارية هم الوزراء التابعين له، لكن ابن بطوطة لم يشير إلى وظيفة هذا النائب ولا الفرارية باستثناء ما ذكره عن كونهم أول من يدخل إلى مجلس الملك حاملين معهم فسين وكبشين، كما ذكر قيامهم بشكر الملك بنزع قسيهم لما وزع على الناس الذهب فوق رؤوسهم.⁽⁵⁾ وفي موضع آخر ذكر ابن

(1) مهدي ادامو، الهوسا و جيرانهم بالسودان الأوسط، في كتاب تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، الصادر عن اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988، ص 296

(2) يذكر القلقشندي (ص 298) بأن هذه المملكة كان يوجد فيها الوزراء والقضاة والكتاب، ويقول بأنه نقل ذلك عن كتاب مسالك الأبصار للعمري، لكننا لم نجد وظيفة بهذا الاسم عند العمري. (القلقشندي) (أبو العباس أحمد)، صبح الأعشى في صناعة الانشا، الجزء الخامس، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1333هـ/ 1915م.

(3) **Bwemba-Bong**, Quand l'Afrique était l'or noire de l'europe, volume 1, éditions Menaibuc, 2005, p26. **Joseph K i-Zerbo et René Holenstein**, A quand l'Afrique. Éditions de l'ambe, 2003, p76.

(4) **ONESCO**, Histoire de l'humanité (600-1492). Editions Unesco, Paris, 2008, p1171

(5) المصدر السابق، ص 685، 687.

بطوطة قصة رواها احد القضاة للملك، ومفادها، هناك جرادة تكلمت وقالت بأن الله يبعثها للبلاد التي يكثر فيها الفساد لإفساد زرعها، وهنا قام الفرارية ونزعوا عمائمهم كعلامة لتبرئتهم من الظلم.⁽¹⁾ فمن خلال كلام ابن بطوطة يظهر لنا المكانة الرفيعة التي يتمتع بها النائب والفرارية لدى الملك، من خلال الأسبقية التي تعطى لهم في دخول مجلسه، وهي مكانة لا ينالها عادة إلا الوزراء والمسؤولين الكبار في الدولة، كما نستنتج من نزع الفرارية لعمائمهم أمام قصة الجرادة وتبرئتهم من الظلم، أن هؤلاء الناس كانوا يشعرون بمسؤوليتهم على إقامة العدل ومحاربة الظلم في ربوع الإمبراطورية، وهي الوظيفة التي كان يضطلع بها الوزراء خلال العصور الوسطى.

وقد تكلم ابن خلدون عن رجل تولى الحكم في مملكة مالي مباشرة بعد مقتل منسا مغا ابن منسا موسى الثاني و هو زوج أم منسا موسى الثاني ويدعى صندكي الوزير⁽²⁾. فرغم أن كلام ابن خلدون لا يوضح إن كان صندكي هو اسم هذا الوزير، أم هو لقب خاص بكل من تولى الوزارة في مالي، إلا أن بعض المؤرخين استنتجوا من هذا بأن الوزير في عهد خلفاء سوندياتا كان يلقب بـ"صندكي" (Sandigui)، أوديون صندكي (Dyon sandigui).⁽³⁾ ورغم أن ابن خلدون يذكر في موضع آخر بأن الوزير كان يدعى عندهم ماري، ومنه اشتق اسم ماري جاطه⁽⁴⁾، إلا أننا نجد بأن ابن خلدون يذكر في موضع آخر من نفس المصدر، بأن معنى ماري عند المالين هو الأمير وليس الوزير.⁽⁵⁾

لذلك فإننا نعتقد بأن الوزير الذي ذكره ابن خلدون لم يكن يلقب بماري جاطة على أساس الوظيفة، و إنما كان ذلك اسمه الشخصي. لكن الشيء الذي نفهمه من رواية ابن خلدون هو أن هذا الصندكي كان كثيرا ما ينفرد بأمور الدولة عندما يجد ملوكا ضعافا مثلما حدث في أواخر عهد منسا مغا.

(1) نفسه، ص688.

(2) ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر. مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، بيروت، لبنان، 1421هـ / 2000م. مج6، ص270.

(3) طرخان (إبراهيم علي)، دولة مالي الإسلامية. دراسات في التاريخ القومي الإفريقي. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1973، ص 129.

(4) المصدر السابق، مج6، ص 269.

(5) نفسه، ص 266.

وإذا رجعنا إلى الروايات الشفوية المندية فأنا نجد بان الوزير كان يدعى "فارما" وهي كلمة مندية مركبة من كلمتين هما فا (Fa) أوفار (Far) والتي تعني الأب أو الوالد، وكلمة ما (Ma) وهو اسم موصول يلعب دور ظرف المكان في اللغة المندية، ويعني مكان منخفض أو الأسفل⁽¹⁾، وبالتالي فيمكن أن يكون ابن بطوطة قد ذكر الفراري قاصداً بما فارما التي تعني الوزير، أو فار التي تعني الوالد أو الأب، خاصة وأنه لم يكن يتقن اللغة المندية، إذ كان يستعين بالترجمان لمخاطبة منسا سليمان.

وحسب الروايات الشفوية فإن الوزارات في مملكة مالي كانت متعددة، فهناك وزير الثقافة الذي يدعى "بايلي فارما" ووزير الأملاك الذي يدعى "واني فارما" أو (دوغو فاما). أما وزير المياه على النيجر الذي يعد المسؤول على الصيد والملاحة به فيدعى "جيتيجي فاما"، كما وجد وزير الغابات الذي كان يطلق عليه اسم "ساو فارما" أو "تو فاما"، والوزير المكلف بالخزينة المدعو "خاليسي فارما" أو "فودي فاما".⁽²⁾ ونجده في بعض المصادر باسم سانتيجيوهو في الحقيقة أمين مخازن الغلال الملكية، والذي يعتبر بمثابة وزير المالية.⁽³⁾ ولهذا نعتقد بأن سانجيتي وصندكي الذي ذكره ابن خلدون، ما هو إلا تحريف لكلمة سانديكي التي تعني وزير المالية أو وزير المخازن الملكية، باللغة المالنكية. كما وجدت هناك وزارة مكلفة بالضرائب أيضاً.⁽⁴⁾

وقد عرفت سنغاي بعض الوزارات، التي تعود إلى فترة خضوع غاو لحكم أسرة كيتا، ومنها خالص فارما وهو وزير المالية، وزير البيض أو الأجنب وهو كوراي فارما، والوزير الأول أو نائب الإمبراطور وهو الأمين العام للإمبراطور ويدعى الكنفاري أو البالاما⁽⁵⁾، ولكن وظيفة الوزير لم تكن تقتصر على تسيير أمور قطاعه وتنفيذ سياسة الملك في القطاع الذي كلف به، وإنما كانت له مهمة إقليمية تضاف إلى مهمته الوزارية ألا وهي تقديم الاستشارات المستقبلية عن إقليم ما لأصحاب

(1) **Delafosse(Maurice)** , Essai de manuel pratique de la langue Mandé ou Mandingue. Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901, p12.

(2) **Niane Tamsir Djibril**, Recherches sur l'empire du mali au moyen âge, mémoire de l'institut national de recherche, Conakry, La Guinée, 1962, p55,

(3) **جبريل تمسير نياني**، مالي و التوسع الثاني للمنديغ، ص 17.

(4) **Bwemba-Bang** , Op.Cit,p28.

(5) **جبريل تمسير نياني**، مرجع سابق، ص 172 .

السلطات الإدارات المحلية من أمراء وحكام مقاطعات، وبذلك لعبوا دور الجسر الذي يربط بين الملك وحكام الإمارات التابعة إليه،⁽¹⁾ لذلك قال عنهم ابن بطوطة بأنهم أمراء⁽²⁾.

كما كان الوزراء يقومون بالترجمة لحكام المقاطعات الذين يأتون لزيارة الملك لما يكونوا من مناطق لا تتكلم لغته، بحيث يتولون مهمة شرح قضاياهم ومشاكلهم للملك⁽³⁾.

ب. أثرها في الميدان العمراني:

أن ازدهار الحياة الثقافية و العلمية في غرب افريقيا تبعه ازدهار في الذوق الفني و خاصة الميدان العمراني، كما أن تفتح الافارقة على الثقافة العربية الإسلامية جعلهم يستمدون منها الكثير من الخصائص في المجال العمراني، لكنهم اثبتوا خصائصهم الابداعية في هذا المجال، فقد أصبحوا يتميزون عن غيرهم من الشعوب في هذا المجال، حيث تمكنوا من وضع أسس الفن المعماري السوداني، وهو الفن الذي يجمع بين الطراز الإسلامي ويحتفظ بالخصوصيات الإفريقية.

فالطراز المعماري السوداني القديم كان بسيطاً تميزه البنية ذات السقف المستدير، وذات الشكل الهرمي المغطى بالقش، أما الحيطان فكانت تُبنى بالطوب ونادراً ما كانت تتخللها الحجارة، كما كانت توجد بالقرب من البيت زريبة لتربية الماشية.⁽⁴⁾ فكانت العاصمة نياني في عهد سوندياتا كيتا مبنية مساكنها بالطين وأسقفها مصنوعة من القصب.⁽⁵⁾ وحتى مدينة تمبكتو كانت في البداية مبنية بعيذان الأشجار وحشائش النباتات، وفي مراحل أخرى من تاريخها قبل أن يحكمها منسا موسى كانت تبنى من شجر الصيان وهو نوع من الأشجار ذات الجذوع الغليظة، أو مبنية بأوتاد مخلوطة بالطين ومسقوفة بالتبن.⁽⁶⁾

لكن وصول منسا إلى الحكم أحدث ثورة حقيقية في المجال العمراني المندي خاصة والسوداني عامة، فخلال تواجده بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة 1324م، تعرف على مهندس وشاعر

⁽¹⁾ Joseph k i-Zerbo et René holenstein , Op.Cit, p76.

⁽²⁾ المصدر السابق، ص 682.

⁽³⁾ Bwemba-Bong, Op.Cit, p26 .

⁽⁴⁾ زيادية(عبد القادر)، الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربي جنوب الصحراء.(دراسات ونصوص). المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 52.

⁽⁵⁾ Mauny(Raymond), Les siècles obscurs Op.Cit, p160.

⁽⁶⁾ باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم)، المرجع السابق، ص 98 .

ومهندس أندلسي هو أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجن⁽¹⁾ فاصطحبه معه إلى مالي، فقام هذا الأخير الذي كان بارعا في الهندسة والتصميم بإحداث ثورة في الطراز المعماري السوداني.⁽²⁾ وكان مع الوفد المرافق لمنسا موسى خلال عودته من الحج شخص يدعى المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي الصنهاجي، وهو أمير من ولد عبد المؤمن بن علي زعيم الموحديين، كان قد التقاه في طريق عودته من الحج، بمدينة غدامس⁽³⁾.

وعند مرورهم بمدينة غاو عاصمة سنغاي التي أصبحت تابعة لإمبراطورية مالي، أبدى المعمر اندهائه لوضعية مسجدها المتردية، والتي كانت تشبه كل منازل البلد في تلك الفترة والمتمثلة في كوخ سقفه من القش،⁽⁴⁾ لذلك نبه منسا موسى إلى أن هذه البناية لا ترقى لمكان يعبد فيه الله، ولا ترقى إلى مقام الإمبراطور، ذلك أن الطراز المعماري السوداني البسيط كان ما يزال يطغى على بنايات ومساجد المملكة، فالمساجد كانت قليلة ولا توجد في كل مكان، وتفتقد إلى اللمسات الفنية للعمارة، فأغلب أمكنة الصلاة بمدن المملكة كانت عبارة عن مربعات أو دوائر رملية تفصل الطريق العمومي بإطار من الحجارة، وتدعى (باتوما)، وكانت هناك مصليات تأخذ شكل كوخ كبير من القش⁽⁵⁾، وطلب هذا الأمير الموحي من أبي إسحاق الساحلي لبناء جامع أكثر رخاء ورونق، فطلب هذا الأخير بأن يحضروا له المواد والسلع والأيدي العاملة التي يتطلبها هذا الإنجاز، فقام ببناء

(1) هو أبو إسحاق إبراهيم الغرناطي بن الفقيه الفرضي محمد الأنصاري الأوسي الغرناطي، المعروف بالساحلي والطويجن، وهو من أهل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة، وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة، وكان من أهل العلم فقيها متفنا، وله الباع المديد في الفرائض، كان في صغره موثقا بسماط شهود غرناطة، وجال ببلاد المغرب، ثم قدم القاهرة ودخل الشام والعراق، ودخل اليمن والحجاز، وعاد إلى مصر، ثم سار إلى بلاد السودان واستوطنها زمنا طويلا، بالغا فيها أقصى مبالغ المكانة والحظوة والشهرة والجلالة، واقتنى مالا دثر. (العسقلاني(ابن حجر): الدرر الكامنة، ج1، ص211). ويذكر دولا فوس بأنه توفي بتمبكتو خلال فترة حكم منسا سليمان سنة 1346 م (Haut Sénégal-Niger, t2, p190).

(2) السلاوي (أبو العباس الناصري)، الاستقصا، مصدر سابق، ص ص74 و75.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص267.

(4) ذكر العمري بأن مدينة نياني كانت مبنية وسقوفها بالأخشاب والقصب وغالب سقوفها قباب أو جلمونات كالقباب، وأرضها تراب مرمّل. (المصدر السابق، ص111)

(5) قداح نعيم، افريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق، ص112.

أول مسجد بالطين في غاو ذا سقف يحتوي على سطح، ومنارة ذات شكل هرمي، وهو محراب مبني بالآجر والطين المشوي بالنار، وأحزمة ظاهرة أصبحت متواجدة أينما وجد المسلمون في السودان.⁽¹⁾

وبهذا ظهر طراز معماري جديد عرفت مالي من خلاله مالي بناء المساجد الأنيقة التي تذكرنا بتلك الموجودة في الجنوب الجزائري والمغربي، والقصور والمنازل التي كانت مأوى قادة البربر في جبال الأطلس. فهذا الطابع المعماري الذي جسده الساحلي ظهر جليا مع بناء القبة المربعة الشكل بالقصر الملكي بمدينة نياني، فلقد كان القصر الملكي لعائلة كيتا مكون من مجموعة من المنازل دائرية الشكل مرتبطة مع بعضها البعض عن طريق سور للدعم، وكلها تؤدي إلى ناحية الجنوب أين توجد ساحة عمومية كبيرة، وهي المكان الذي كان يستقبل فيه الملك رعيته، كما توجد قاعة أخرى ذات شكل مثالي وهي خاصة باستقبالات الملك الخاصة، وهي القاعة التي أضافها المهندس أبو الساحلي، وهي البناية الوحيدة المبنية بالحجارة، عكس البنايات الأخرى التي كانت مبنية بالطين.⁽²⁾

ولعل أهم ما أبحر المالين والمؤرخين العرب الذين كتبوا عن الموضوع هو تلك القبة المربعة الشكل التي غطت قصره وحضرة ملكه، والتي استفرج فيها أبو إسحاق الساحلي كل موهبته وإجادته، حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ المشبعة، والنقوش والتخريم، فكانت من أجمل المباني التي بنيت في مالي وأتقنها، ونالت دهشة منسا موسى واستغرابه، حيث لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل، لذلك كافأ مهندسه باثنتي عشرة ألف مثقال من التبر (الذهب المسحوق) بالإضافة إلى هدايا أخرى وصلات سنية.⁽³⁾

إن أوصاف هذه القبة تعبر عن ميلاد نموذج جديد لطابع للعمارة المغربية التي اشتهرت بقبابها ومآذنها المربعة في عهد الزيانيين والمرينيين خاصة، إذ كانت فاس والأندلس خلال العهد الميني تتخذ قبابها شكلا مربعا، و تحتوي على زخارف، والتي لم تكن موجودة من قبل في المغرب،⁽⁴⁾ ومن هنا

⁽¹⁾ Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard) , Les Nègres. Editions l'harmattan, Paris, 2005, pp 22 e t23 ;- Delafosse(Maurice) , Haut Sénégal-Niger, tome2, p189.

⁽²⁾ Ogunsole(John Igué) , Les villes précoloniales d'Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008, p36.

⁽³⁾ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 268. — ،. السلاوي، المصدر السابق، 152 .

⁽⁴⁾ بن قرية(صالح)، المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص ص 99، 100.

نستطيع أن ندرك مدى التأثير الذي تركه هذا المهندس المعماري الأندلسي الذي حل بفاس وعاش بالأندلس، والذي حمل فنه معه إلى بلاد السودان، وبالتالي عرفت مالي الفن الإسلامي من باب العمارة.

لما رأى منسا موسى إنجاز الساحلي في غاوا، طلب منه إعادة إنجاز مثل هذا الإبداع في مدينة تمبكتو التي كانت مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة /11م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14م.⁽¹⁾ فقام الطويجن بعمل كبير في هذه المدينة التي سوف تصبح بفضلها أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتمبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمال، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك،⁽²⁾ فأقام له صومعة من خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين.⁽³⁾

وقد نقل المهندس الأندلسي هذا النموذج المعماري عن المغاربة الذين كانوا يقيمون القبور بالقرب من المساجد أو بداخلها خاصة أضرحة العلماء والصالحين.⁽⁴⁾ وقد أطلق على هذا المسجد الكبير فيما بعد اسم جنجير بر (أي المسجد الكبير)، وظل قائما لمدة ثلاث قرون، بحيث ما تزال بعض أسسه قائمة إلى غاية الوقت الحاضر بمدينة تمبكتو.⁽⁵⁾ حيث لخص فيه أبو إسحاق الساحلي

(1) السعدي، المصدر السابق، ص 20، 21 .

(2) Cornevin(Robert et Mariane), Histoire de l'Afrique, Op0Cit, p164.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص 87 .

(4) يذكر عبد الرحمان السعدي بأنه لما قام الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بتجديد المسجد الكبير بين سنتي 991 و 1583/هـ و 1587م وبنا مكانه مسجدا آخر، خرب جميع تلك القبور وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صير الجميع مسجدا، وزادها زيادة كبيرة. (تاريخ السودان، ص 56).

(5) Cornevin(Robert et Mariane), Op.Cit, p164.

= يذكر الظابط الفرنسي فيليكس دوبوا(Felix Dubois) الذي زار تمبكتو سنة 1896م بأنه رغم أن مساحة هذا المسجد ازدادت واتسعت خلال القرن العاشر للهجرة/16م مع تزايد عدد سكان تمبكتو إلا أنها في الحقيقة لا يمكن أن نصفها بالعمل الفني الكبير، إذ تعد مجرد أسوار متفاوتة الطول والعرض والارتفاع ولا ترقى للمستوى حتى تلك القبور والأضرحة التي أنشئت بجوارها والتي تتميز بانسجام كبير تذكرنا بجمال التزيينات التي بني بها جامع جنيالقدم. Dubois (Felix)

الطراز السوداني في العمارة، كما بنا الإقامة الملكية المعروفة بالمادوغو (Madougou) وتعني أرض السيد في أقصى شمال غرب تمبكتو، بالإضافة إلى بنائه لأسوار المدينة التي يبدو أنها بنيت من أجل حمايتها بعد تعرضها لهجمات الموشي⁽¹⁾ وزود وسط مدينة تمبكتو بساحة كبيرة لم يعرف السودان الغربي لها مثيلا من قبل ولم توجد في أي بلد سوداني آخر خلال تلك الفترة، أو قبلها⁽²⁾، مما يؤكد أصالة العمارة التي أدخله منسا موسى وحدائته بالنسبة للسودان الغربي. وازداد اهتمام منسا موسى بعد ذلك ببناء المساجد، وخاصة بعد حجه، حيث أنشأ خلال سفره إلى الحجاز مسجدا في كل مدينة مر بها من مدن السودان، منها مسجد تمبكتو الذي ذكرناه، ومسجد دوكوري، كوندام، ديري، وانكو ومسجد باكو⁽³⁾.

بعد ذلك وجه منسا موسى جهوده العمرانية إلى مدينة جني الواقعة عند منعطف النيجر، والتي كان أهلها ينتمون حسب التقسيم الطائفي الذي وضعه سوندياتا إلى طبقة الحرفيين، فكانت هذه المدينة تعج بالبنائين الذين أتقنوا عملية البناء المعروفة بالبانكو (Banco) باحترافية كبيرة⁽⁴⁾، كما ظهر خلال هذه الفترة مهندس مغربي آخر هو معلوم إدريس المراكشي الذي عاصر أبا إسحاق الساحلي⁽⁵⁾ الذي يكون منسا موسى قد أوكل له مهمة بناء مدينة جني، وبالتالي يكون قد أضاف لها اللمسة المغربية للعمارة السودانية التي كان قد بدأها المهندس الغرناطي. فامتزجت في جني عبقرية تصميم إدريس المراكشي مع احترافية بناؤوا جني، لذلك تميزت بنايات جني بالأناقة والجمال والإتقان، حيث تكونت المنازل فيها من طابق أول مؤلف من عدة أروقة، وتحتوي على مخادع صغيرة أين يوضع فيها الماء داخل جرات من الطين، وساحة صغيرة على مستوى واحد هذا الطابق الذي لا تطل عليه الشمس إلا من هذه الجهة.

Timbuctoo the mysterious. Translated from the french by : Diana White, New York, 1896, p275.

⁽¹⁾ Ogunsolo(John Igué), OpCit, p41.

⁽²⁾ Dubois(Felix), Op Cit, p275.

⁽³⁾ Mahmoud kati, OpCit, p56.

⁽⁴⁾ Niane djibril temsir, Le soudan occidental au temps des grands empires. Présence Africaine, Paris, 1975, p134.

⁽⁵⁾ يعتقد الأستاذ عبد القادر زبادة بأن معلوم إدريس هذا كان أحد مساعدي الساحلي. (مملكة سنغاي في عهد الاسقيين. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص 107).

أما الطابق الأرضي فإنه موزع بنفس الطريقة، ويستعمل كمخزن لحفظ الأرز والذرة البيضاء، كما يستخدم كإسطبل للحيوانات. وهذا المخزن يؤدي إلى ساحة أخرى توجد خلف المنزل، ويتم الصعود من الطابق الأرضي إلى العلوي عن طرق سلّمين واحد منهما يوجد عند المدخل والآخر في الساحة بالداخل. أما السقف فكان مغطى بقطع خشبية متباعدة عن بعضها بمسافات معينة ويغطيها الطين لتشكيل سطحاً صغيراً محاطاً بجدران مرتفع قليلاً، ويتم الصعود إلى هذا السطح عن طريق سلم من عشر درجات⁽¹⁾. بالإضافة إلى المنازل قام إدريس المراكشي ببناء الجامع الكبير بمدينة جني، الذي يمثل نموذجاً حقيقياً للتمازج المعماري السوداني مع العمارة المغربية⁽²⁾.

وكان عهد منسا سليمان شقيق منسا موسى هو أيضاً زاخراً بالإنجازات العمرانية، فبنا المساجد العادية والمساجد الكبيرة، ورفع المآذن، فاقد كان حريصاً على صلاة الجماعة في المساجد وجعلها فرضاً على الناس، فقد ذكر ابن بطوطة بأنه في عصر هذا الملك كان الناس مواظبين على الصلوات وملتزمين بأدائها في جماعة، حتى إذا كان يوم الجمعة ولم ييكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام⁽³⁾. مما تطلب بناء المزيد من المساجد، كما وسع مدينة نياني العاصمة إلى أن أصبحت مساحتها تبلغ حوالي بريد طولاً وعرضاً⁽⁴⁾ وجعل بناياتها مكونة من طبقات من الطين تشبه أسوار وحدائق دمشق، وسقفها يتخذ شكل قبة أو سنام جمل⁽⁵⁾.

وعموماً فإن الجهود التي بذلها الملك منسا موسى، بجلب هذا المهندس الأندلسي والذي كان بمثابة وزيره للعمران والفنون الجميلة حسب دولافوس وموراليس⁽⁶⁾، قد أفرزت طرازاً معمارياً يوافق بين الطراز المغربي الموريسكي مع شكل العمارة السودانية البسيطة، وبالتالي ظهر مصطلح ما يعرف بالفن المعماري السوداني الذي اقترن بمنسا موسى ومهندسه الأندلسي، وهو في الحقيقة ليس طرازاً سودانياً

(1) Niane djibril temsir , Le soudan occidental, p130.

(2) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 147 .

(3) المصدر السابق، ص 690 .

(4) البريد هو وحدة قياس قديمة لقياس المسافة تقدر بـ 23 كيلومتراً

Mauny (Raymond) , les siècles obscurs , p160.

(5) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 150 .

(6) Delafosse (Maurice) et Mouralis (Bernard) , Les Nègres,p23.

خالصا وإنما يستمد خصائصه من الحضارات المتوسطية القديمة والوسطى والذي ما يزال موجودا في جنوب الصحراء الغربية وجنوب المغرب الأقصى.⁽¹⁾

لكن بعض المؤرخين الغربيين والمستشرقين لا يريدون الاعتراف بدور الساحلي في العمارة السودانية، وينكرون وجود ذلك الأثر المغربي فيها، ومنهم من يعتبر شخصية أبي إسحاق الساحلي شخصية وهمية ولا وجود لها، في محاولة لنفي أي تأثير عربي إسلامي في العمارة السودانية. فالأستاذة سوزان أراديون (Suzan Aradeon) تذكر بأن أبا إسحاق الساحلي هو مجرد أسطورة من وحي خيال المصادر التاريخية العربية التي اخترعتها، وانتشرت بعد ذلك عند الأوربيين. وتقول بأنه من يقول بوجود الأثر المغربي فهو جاهل بخصائص العمارة السودانية، فهي تحاول أن تقنعنا بأنها تريد الدفاع عن أصالة الفن المعماري السوداني، وتتهم هذه المصادر العربية بأنها تسعى إلى إثبات عجز السودانيين على بناء شيء غير الأكواخ الصغيرة⁽²⁾. لكنها في المقابل لم تقدم لنا ولا دليل مقنع عن ادعائها سوى ذكر آراء المؤرخين الأوربيين الذين شككوا في دور الساحلي، فهي تستشهد بكلام شارل مونتاي (Charles Monteil)، لكن هذا الأخير لا ينكر وجود شخصية الساحلي، ولا ينفي ما قام به، لكنه ينسب للساحلي بناية واحدة وهي قاعة الاستقبالات في العاصمة نياني⁽³⁾.

كما نستشهد بما كتبه الدكتور الألماني هنري بارث (Henri Barth) وتقول بأنه يشكك في أسطورة الساحلي، لكننا لو عدنا إلى ما كتبه هنري بارث لوجدنا بأنها أولت خطأ كلام بارث بما يدعم فكرتها المسبقة، حيث لو رجعنا إلى ما قاله الدكتور الألماني فنجد ما يلي: «إن تمبكتو التي يبدو أنها استسلمت بدون مقاومة للفتح (أي منسا موسى) تحولت إلى عاصمة لإمارة ذات عظمة ومكانة، لأن الزعيم الجديد، وهو رجل حيوي وصديق للفنون زود المدينة بمسجد وقصر جديد»⁽⁴⁾.

لهذا فنحن نعارض ما وصلت إليه الباحثة سوزان ارادون فبارث لم ينف ولم يشكك في شخصية الساحلي كما تدعيه الأستاذة أراديون، بل لم يذكرها أصلا، ولكنه ينسب بناء المسجد

⁽¹⁾ Trimingham (Spencer), Op.Cit, p69.

⁽²⁾ Suzan B.Aradeon: Al-Sahili (The historians Myth. of architectural technology transfer from North Africa. In Journal des Africanistes. Année1989, Volume 59, N°01, p99

⁽³⁾ Charles Monteil, Les empires du Mali, p86.

⁽⁴⁾ Henri Barth , Voyage en Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 a.Traduction de l'Almand par :Paul Ithier. Edité par :A.Bohné, librairie Paris, et A. Lacroix, Bruxelles, 1861, tome4, 1855 pp14, 15.

والقصر في تمبكتو لمنسا موسى على أساس أنه هو الإمبراطور صاحب الأمر والنهي، وصاحب السلطة التنفيذية في مالي، فلم يذكر من نفذ أوامره بالبناء، لكنه في المقابل نرى هناك تطابق كبير مع ما ذكره السعدي الذي يقول بأن منسا موسى بنا مسجد وقصر تمبكتو بعد ضمها إلى مملكته عند عودته من الحج سنة 1326م/726هـ⁽¹⁾.

كما يذكر بأن هذا الإمبراطور كان صديقا للفنون، ونحن نعلم بأن ولعه بالفن هو ما جعله يتقرب من هذا المهندس الشاعر، ويصرّ على جلبه إلى بلاده. ومن الشواهد التي استندت إليها الأستاذة في نفي الأثر المغربي في العمارة السودانية كلام موريس دولافوس، لكننا نجد هنا تناقض مع ما ذهبت إليه، فهي تقول بأن دولافوس قد أشار إلى أن منسا موسى هو الذي طلب من الساحلي إدخال النموذج السوداني إلى العمارة السودانية وأن هذا الأخير (أي الساحلي) استوحى تفاصيلها من النموذج المغربي.⁽²⁾

وبذلك يمكن أن نستنتج بأن ما ذهبت إليه الأستاذة سوزان أراديون لا يقوم على أية أسس علمية، ويبقى مجرد أحكام مسبقة خاطئة وتنفيذ لأحداث تاريخية أكدتها كل المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية⁽³⁾. فالمصادر العربية لم تنكر وجود عمارة سودانية، ولكنها تعترف بأنها كانت بسيطة وتفتقد إلى الرقي الذي وصلت إليه العمارة المغربية، وما إصرار منسا موسى على جلب المهندس الغرناطي إلى بلده إلا لمهمة البناء.

صحيح أن البناء الأول الذي قام به أبو إسحاق الساحلي والمتمثل في مسجد مدينة غاو كان باقتراح من الأمير الموحد المعمر، لكن البناءات الأخرى التي أقامها في كل من تمبكتو ونياني كانت بطلب من منسا موسى. وهو ما يعني افتقاد مالي لمن يتقن هذا الفن، كما أن انبهار الملك منسا موسى بالانجاز الذي قام به الساحلي من خلال بنائه لتلك القبة المربعة بقصره في نياني، والسخاء

(1) السعدي، تاريخ السودان، ص 7 و 87.

(2) Suzan B. Aradeon, Op.cit. pp99, 100.

(3) Raimbault (Michel) et Kléna (Songo), Recherches archéologiques au Mali. Éditions Karthala, Paris, 1991.

الذي أبداه في مكافأته عليه لدليل على عدم وجود عمارة في مالي بذلك الرقي والإتقان، خاصة وأن ابن خلدون قد أكد ذلك بقوله: « لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل»⁽¹⁾.

3 - المراسلات العلمية بين حواضر غرب إفريقيا و دورها العلمي و الثقافي :

من بوادر النهضة العلمية التي شهدتها الحواضر العلمية و الثقافية في غرب افر يقيا تلك المراسلات التي تمت بين علماء و دعاة المنطقة و علماء و مصلحين من المشرق و المغرب الإسلاميين حول مسائل فقهية أو عقدية أو غيرها، بالإضافة إلى المبعوثون في مهام تعليمية إلى الحجاز و مصر. فلقد كانت هذه المراسلات تهدف إلى توجيه الدعاة و تدعوهم إلى المنهج القويم و السليم، كما تدعوهم إلى تصحيح الأفكار و العقائد و الممارسات المنحرفة الحاصلة في الدين ، كما تبين لهم طرق التعليم و مناهجها و سبل حل الخلافات بين المسلمين و آثارها السلبية على الأمة الإسلامية.

و من أشهر هذه المراسلات رسالة الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي لسلطين بلاد التكرور عموما و بلاد كاتسينا في الهوسا خصوصا، و قد ضمنها الوصية بتقوى الله و الشناء عليه والتذكير بالآخرة، و عدم الاغترار بالدنيا و زينتها، و الوقوف إلى جانب الشريعة و إنكار المخالفات الشرعية التي انتشرت في بعض بلادهم².

و ذكر محمود كعت في تاريخ الفتاش أن الأسقيا محمد توري لما كان عائدا من الحج التقى بمصر بالسيوطي سأله عن قضايا فكانت إجاباته موافقة لإجابات علماء السودان الغربي الذين كان الأسقيا قد سألهم مثل محمد بن عبد الكريم المغيلي³. كما كانت للسيوطي مراسلة أخرى للمغيلي شملت تحريم علم المنطق بينما رد عليه المغيلي برسالة يحلل فيها المنطق و يرد عليه و ختمها بقصيدة شعرية في هذا الرد⁴.

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 268 .

(2) هارون المهدي ميغا، المراسلات العلمية و آثارها التعليمي، و الدعوي بغرب إفريقيا، مجلة قراءات افريقية، العدد الثالث، ديسمبر 2008م، ص 3.

(3) محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص ص 6،7،8.

(4) احمد بابا التبيكتي، نيل الابتهاج في تطريز الديقاج، مصدر سابق، ص 332.

و في السودان الأوسط فقد جرت مراسلات بين الشيخ محمد الأمين كانمي سلطان كانم والشيخ عثمان دان فوديو خليفة المؤمنين بسوكوتو، حيث دارت مواضيع المراسلات بينهما حول حكم الجهاد في بلاد الهوسا و كانم بورنو، علما بأن الكانمي درس في المدينة المنورة والقاهرة و فاس، وذاع صيته ببلاد السودان الأوسط، و أصبح له تأييد و نفوذ و تأثير كبير على الناس، و كان يرى بأن لجو الشيخ عثمان دان فوديو إلى الجهاد في صفوف المسلمين الذين كانوا خاضعين للممالك الوثنية يضر بالمسلمين و ينحرف عن رسالة الإسلام الحقيقية، بالاضافة إلى واجبه للدفاع عن بلاد كانم بعدما احتلتها قوات عثمان دان فوديو فكانت بينهما حروب بالبنادق و السيوف و حروب بالقلم عن طريق المراسلات التي حملت مناظرات علمية و دينية. فلقد بلغت تلك المراسلات عشرات الرسائل و دامت ست سنوات دافع فيها كل واحد منهما عن موافقه، و لقد ساهمت تلك المراسلات بينهما في تصحيح الكثير من المفاهيم مستندين إلى الكتاب و السنة¹.

(¹) هارون المهدي ميغا، المراسلات العلمية، مرجع سابق، ص6.

المحور الرابع

نماذج من علماء غرب إفريقيا و إنتاجهم:

1. أحمد بابا التنبكتي:

أ.نسبه:

اسمه الكامل هو أبو العباس أحمد بن الحاج أحمد المسك بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت المسوفي، الصنهاجي، التنبوكتي، يعرف باسم بابا، ولقد ذكر مولده بنفسه في كتابه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج »، حيث قال فيه: « مولدي كما وجدته بخط والدي ليلة الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة ختام عام ثلاث وستين وتسعمائة(الموافق لـ 26 أكتوبر 1556م)، ونشأت في طلب العلم فحفظت بعض الأمهات وقرأت النحو على عمي أبي بكر الشيخ الصالح، والتفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان والتصوف وغيرها على شيخنا العلامة محمد بغيغ، ولازمته سنين وقرأت عليه جميع ما تقدم عني في ترجمتي، وأخذت عن والدي الحديث سماعا والمنطق، وقرأت الرسالة ومقامات الحريري تفقها على غيرهم، واشتهرت بين الطلبة بالمهارة على كلال وممل في الطلب⁽¹⁾»

ينتمي أحمد بابا إلى أسرة شهيرة تعرف بـ « آل أقيت » ، أصلها من مدينة ولاتة في بلاد الحوض من شرقي موريتانيا، وكان يُعرف أيضا بأحمد بابا التكروري نسبة لبلاد التكرور⁽²⁾. نشأ أحمد بابا التنبكتي تحت حكم الأمير أسكيا (1549-1582م)، وكانت تنبكتو إذ ذاك من أهم مدن مملكة سونغاي. درس على شيوخ أسرته وعلى العالم الكبير محمد بغيغ الونكري كما مر ذكره في

(1) أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، الجزء الثاني، دراسة و تحقيق : محمد مطيع، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1421هـ/2000م، ص 281.

(2) ليلى الصباغ، أحمد بابا التكروري(963 - 1036هـ/ 1556 - 1627م) في موقع الكتروني:

حديث أحمد بابا عن نفسه، وحصل علما واسعا بفضل مطالعته وعلاقاته مع معاصريه حتى نال مكانة علمية متميزة⁽¹⁾.

لازم احمد بابا شيخه بغيغ أكثر من عشرين سنة، وقال بشأنه في نيل الابتهاج: «...لازمته أكثر من عشر سنين فقرات عليه بلفضي مختصر خليل و فرعي ابن الحاجب قراءة بحث و تحقيق و تحرير ختمتها عليه ، أما خليل فمرارا عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي و قراءة غيري، و حضرت عليه التوضيح كذلك لم يفتني منه إلا اليسير... و ختمت عليه الموطأ قراءة فختمت عليه مختصر خليل بقراءتي وقراءة غيري عليه نحو ثلاث مرات، و ختمت عليه الموطأ قراءة تفهم، وتسهيل ابن مالك قراءة تدقيق وبحث مدة ثلاث سنوات، وأصول السبكي بشرح المحلى ثلاث مرات قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بشرح السعد مرتين، وصغرى السنوسي مع شرح الجزيرية، وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق لها، ونظم أبي مفرح، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض بشرح السبتي، وكثيرا من تحفة الحكام لابن عاصم بشرحها لابنه، كلها بقراءتي. وقرأت عليه فرعي ابن حاجب قراءة بحث، جميعه، وحضرته في التوضيح كذلك لم يفتني منه إلا من الوديعه إلى الأفضية وكثيرا من المنتقى للبايجي، والمدونة بشرح أبي الحسن الزرويلي، وشفاء عياض، وقرأت عليه صحيح البخاري نحو النصف، وسمعته بقراءتي، وكذلك صحيح مسلم كله، ودولا من مدخل ابن الحاج، ودروسا من الرسالة والألفية وغيرها، وفسرت عليه القرآن العزيز إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملا، وهو في سفر كبير، ومواضع أخرى منه، وباحثه كثيرا في المشكلات، وراجعت في المهمات، وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه، وأوقفته على بعض توالي في فسر به وقرظ عليه بخطه، بل كتب عني أشياء من أبحاثي، وسمعته يقول بعضها في درسه لإنصافه وتواضعه وقبوله بالحق حيث تعين»⁽²⁾.

فمن خلال ترجمة احمد باب لشيوخه بغيغ نلاحظ استعراض للأحوال الثقافية السائدة والبرامج الدراسية التي كانت سائدة في عصره أي تاريخ للحياة الفكرية في تنبكتو خلال القرن السادس عشر،

(1) جمال بامي، احمد بابا التنبوكتي، ضمن جريدة ميثاق الرابطة، جريدة الكترونية أسبوعية تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء، العدد 238، 2016/10/27، في موقع الكتروني: <https://www.maghress.com>

(2) احمد بابا التنبوكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، الجزء 2، ص 602.

كما نلاحظ ذلك التداخل بين الثقافة المغربية والإفريقية على مستوى مناهج التدريس المعارف، وهذا دليل على التأثير الثقافي والفكري للمغرب على إفريقيا جنوب الصحراء⁽¹⁾.

ب. محنته :

و لقد ذكر الزركلي العالم احمد بابا في كتابه الأعلام: « أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التنبوكتي السوداني، أبو العباس: مؤرخ، من أهل تنبكتو في إفريقية الغربية أصله من صنهاجة، من بيت علم وصلاح. وكان عالما بالحديث والفقه. وعارض في احتلال المراكشيين لبلدته (تنبكتو) فقبض عليه وعلى أفراد أسرته واقتيد إلى مراكش سنة 1002 هـ، وضاع منه في هذا الحادث 1600 مجلد، وسقط عن ظهر جمل في أثناء رحلته فكسرت ساقه، وظل معتقلا إلى سنة 1004 هـ، وأطلق فأقام بمراكش إلى سنة 1014 وأذن له بالعودة إلى وطنه. وتوفي في تنبكتو، وكان شديدا في الحق لا يراعي أحدا... وعلى إثر حملة أحمد المنصور الذهبي الشهيرة إلى بلاد السودان (الغربي)، ومنها حاضرة تنبكتو حيث بلاد صاحبنا أحمد بابا، امتحن في طائفة من أهل بيته بثقافتهم في بلدهم في شهر محرم سنة 1002 هـ على يد محمود بن زرقون، لما استولى السعديون على بلادهم تمبكتو، وجاء بهم أساري في القيود، فوصلوا مراكش أول رمضان من العام نفسه واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف إلى أن أحجم أمر المحنة فسرخوا يوم الأحد الحادي والعشرين لرمضان سنة 1004 هـ⁽²⁾.

كما تحدث ابو الناصري في "الاستقصا" عن نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك: « كان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم إلى أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول، وكانت أذنتهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم

(1) جمال بامي، احمد بابا التنبوكتي، مرجع سابق.

(2) الزركلي(خير الدين)، الأعلام، قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980، الطبعة الخامسة، المجلد الأول، ص 123.

وربما وشي إليه بهم، فكتب إلى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريمهم إلى مراكش فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد ابن عمر بن محمد آقيت المدعو بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التأليف، وكان فيها أيضا الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر ابن محمد آقيت وغيرهما، وحملوا مصنفين في الحديد إلى مراكش ومعهم حريمهم وانتهت ذخائرهم وكتبهم»¹.

لقد نُفي أحمد بابا من تنبكتو باتجاه مراكش يوم السبت 18 مارس 1593م بأمر من قائد من جيش المنصور هو الباشا محمود بن زرقون الذي احتل تنبكتو، وأجبر على الإقامة الجبرية هناك لمدة 14 سنة بعيدا عن أهله، ولم يعد إلى تنبكتو إلا بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي رجع إلى تنبكتو سنة 1607م.

و بعد عودته الى تنبكتو و انقضت محنته، عاد احمد بابا الى نشاطه العلمي المعهود، حيث اخبرنا هو بنفسه في نيل الابتهاج، بانه بعد عودته وازدحم علي الخلق وأعيان طلبة تنبكتو، و لازموه، و قرأ عليه اشهر قضائها كقاضي الجماعة بفاس العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني وهو كبير ينيف على الستين سنة ، و قاضي مكناسة الرحالة المؤلف أبو العباس ابن القاضي ، وقرأ عليه مفتي مراكش الرجراحي وغيرهم، كما و اصبح يستفتى في كل النوازل التي يستفتى فيها غيره حتى اشتهر اسمه في البلاد من سوس الأقصى الى بجاية و الجزائر وغيرها. وقد قال له أحد طلبة الجزائر حل بمراكش ايام إقامته الجبرية اننا لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط².

ج. تلاميذه:

من تلاميذ الإمام أحمد بابا المشاهير نذكر، ابا العباس ابن القاضي صاحب جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس والغساني، و أبو عبد الله محمد بن يعقوب الآسي المراكشي الذي لازمه كثيرا وأخذ منه الإجازة؛ والحاج أحمد بن الحاج محمد فهدي التواتي الذي كان

(1) الناصري(أبو العباس)، الاستقصا ، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص ص 129 . 130 .

(2) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص 602.

شديد القرب منه إذ لازم ليالي وأياما، وشهورا وأعواما، وقد أجازته إجازة مطلقة من غير تقييد. و
تلمذ عليه أحمد بن محمد بن داود الجزولي التلمي وهو من أبرز رجال العلم بسوس في عصره¹.

د. انتاجه العلمي:

أما عن مؤلفات أحمد بابا فقد قال عنها هو بنفسه : «وألفت عدة كتب تزيد على أربعين
تأليفا: كشرحي على مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح ممزوجا محرراً، وحواشي على مواضع
منه، والحاشية المسماة من الرب الجليل في مهمات تحرير خليل يكون في سفرين، وفوائد النكاح على
مختصر كتاب الوشاح للسيوطي»² وغيرها.

كما وضع على مختصر خليل من الزكاة إلى أثناء النكاح مؤلفا في جزئين سماه "المقصد
الكفيل بحل مقفل خليل"، وحاشية عليه سماها من الجليل في فتح مهمات خليل، كما كتب فتح
الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، والزند الوري في مسألة تخيير المشتري، وتنبية الواقف على تحرير
نية الحالف، كما الف وتعليقا على أوائل ألفية ابن مالك سماه النكت الوفية بشرح الألفية، وله أيضا
نيل الأمل في تفضيل النية على العمل، وغاية الإجابة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة وهو
في كراسين، وآخر سماه "النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة، وما رواه الرواة في مجانبة
الولاية، وشرح الصغرى للسنوسي، ومختصر ترجمة السنوسي، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، و "كفاية
المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" اختصر فيه "النيل"، وخمائل الزهر فيما ورد من كفيات الصلاة
على سيد البشر، والدرر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير، وسؤال وجواب في جواز الدعاء باللهم
، وشرح الصدر وتنوير القلب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من ذنب، والكشف والبيان
لأصناف مجلوب السودان، المناقب الفاخرة في أسماء سيد الدنيا والآخرة، والمنهج المبين في شرح
حديث أولياء الله الصالحين، والبدور المسفرة في شرح حديث الفطرة، وفتح الصمد الفرد في معنى محبة
الله تعالى للعبد، نزول الرحمة في التحديث بالنعمة، ودرر الوشاح في فوائد النكاح وهو مختصر لكتاب
الوشاح للسيوطي، ونيل المرام ببيان حكم الأقدام على الدعاء لما فيه من إيهام وهو مأخوذ من
مسودة تأليفه فتح التقدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير، وتحفة الفضلاء ببعض
فضائل العلماء ومختصره مرآة التعريف في فضل العلم الشريف، ودرر السلوك بذكر أفاضل الخلفاء

(1) جمال بامي، احمد بابا التنبوكتي، مرجع سابق

(2) نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص614.

الملوك، وأجوبة الأسئلة المصرية، وله أسئلة في المشكلات¹. وقد وردت معظم هذه المؤلفات في "فهرسة المراكشي، وبعضها الآخر ذكر في كتاب "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" للعلامة الولاقي.

هـ. اجتهاداته:

من أشهر الاجتهادات العلمية لأحمد بابا التنبكتي فتواه في شأن استرقاق المسلمين من بلاد السودان. فقد وجه بعض المستفتين من بلاد توات رسالة إلى الشيخ أحمد بابا التنبكتي يستفتون فيها عن جواز تملك العبيد المجلوبين من البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، التي تقرر إسلام أهلها كبلاد برنو وعفنو وكانو وكاغو ونحوها؛ وقد أفرد أحمد بابا الجواب برسالة خالف فيها رأي الإمام الونشريسي (توفي 914هـ) ختمها بقوله، هذا آخر ما تيسر من "معراج الصعود إلى نيل مجلب السود"، وإن شئت فسمه "الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان"².

حيث بين أحمد بابا أن أهل هذه البلاد مسلمون، أسلموا بلا استيلاء أحد عليهم. ، ومنهم قدماء في الإسلام كأهل مالي أسلموا في القرن الخامس، وقد تصدى الشيخ أحمد بابا لتوضيح المسألة وملاساتها الشرعية والتاريخية، إذ ورد في متن الرسالة التي بعثت إلى الشيخ أحمد بابا: «وقولكم وقد أخبر بعض قضاة السودان أن الإمام الذي استفتحهم وهم كفار اختار إبقاءهم.. ولا يخفى أنه يترتب على التسليم بهذه الرواية التاريخية جواز استرقاق أهل هذه البلاد، وإن حصل إسلامهم بعد ذلك. لقد خالف أحمد بابا هذه الرواية، فهي -في نظره- دعوى بلا دليل، ومما قاله أحمد بابا في رد هذه الشبهة: «واسألوا هذا القاضي السوداني من هذا الإمام؟ وفي أي وقت فتح بلادهم؟ وأية بلاد فتح؟ يعين لكم ذلك كله، وما أقرب كلامه لعدم الصحة، فلو بحثتم الآن لا تجدون أحداً يخبركم بحقيقة ما قال. فما انبى على كلامه لا يعتبر والله تعالى أعلم»³.

(1) جمال بامي، احمد بابا التنبكتي، مرجع سابق

(2) يندرج موضوع كتاب معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود، أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، في إطار نوازل الاسترقاق الخاصة بأهل السودان الغربي جنوب الصحراء، في وقت أضحت فيه هذه البلاد مصدرا لسوق العبيد نحو العالم الجديد، وموردا اقتصاديا مهما للمغرب الأقصى في العهد السعدي.

³ احمد بابا التنبكتي، معراج الصعود في حكم مجلوب الأسود، مخطوط مصور.

ويرتب الفقيه أحمد بابا على هذه المعطيات التاريخية والاستنباطات الشرعية والمقاصدية حكماً في غاية الأهمية، وهو أن كل من عرف أنه من بلاد السودان التي أسلم أهلها، وذكر أنه من تلك البلاد، فيحلى سبيله، ويحكم له بالحرية المطلقة، حيث ان أحمد أطلق هذه الفتوى الجريئة في أوج عظمة الدولة السعودي.

توفي رحمه الله في تنبكتو بعدما عاد إليها من منفاه بمراكش بعد 19 سنة، حيث توفي فيها بتاريخ إبريل 1627م.

2. الشيخ محمد بن محمود بن أبي بكر التنبكتي المعروف ببغيع (باكاويكو):

كان هذا العالم أول متن حاز على لقب شيخ الإسلام في منطقة غرب إفريقيا، وكان من أشهر علماء غرب إفريقيا في العالم الإسلامي، يصفه تلميذه أحمد بابا التنبكتي بقوله: «شيخنا و بركتنا الفقيه العالم المتفنن الصالح العابد الناسك المفتي، من خيار عباد الله الصالحين و العلماء و العاملين مطبوعا على الخير و حسن النية و سلامة الطوية والانطباع على الخير و اعتقاده»¹.

درس بغيغو علوم العربية والفقهاء على أبيه القاضي محمود ثم رحل للمشرق وحضر مجالس العلم بمصر حيث تتلمذ على أشهر العلماء من أمثال: الناصر اللقاني، ومحمد البكري، وبعد الحج رجع إلى السودان الغربي وتفرغ للعلم وطلابه، وتوفي سنة 1593م، وقال عنه أحمد بابا "كان طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتدئ ولا من بليد، أفنى فيه عمره مع تشبته بجوائح العامة وأمور القضاء²، درس بغيغو علوم العربية والفقهاء على أبيه القاضي محمود ثم رحل للمشرق وحضر مجالس العلم بمصر حيث تتلمذ على أشهر العلماء من أمثال الناصر اللقاني، و محمد البكري، وبعد الحج رجع إلى السودان الغربي وتفرغ للعلم وطلابه، وتوفي سنة 1593م، وقال عنه أحمد بابا: « كان

(1) نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 600.

(2) جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية (غرب إفريقيا نموذجاً)، موقع الكتروني:

[/http://africanulama.org/blog/2017/09/09](http://africanulama.org/blog/2017/09/09)

طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتدئ ولا من بليد، أفنى فيه عمره مع تشبته بجوائح العامة وأمور القضاء، إذ لم يصيبوا عنه بديلا و لا نالوا له مثيلا»¹.

ويضيف أحمد بابا في ترجمته : «لقد صار في آخرة الحال شيخ وقته في الفنون لا نظير له لازمته أكثر من عشر سنين، فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل وابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم، وحضرته كثيرا في المنتقي والمدونة بشرح المحلى ثلاث مرات وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحها»، وختتم الترجمة بقوله: «وهو شيعي وأستاذه ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه»².

إن بغيوغو إلى جانب دروسه مؤلفا ومحشيا على أمهات كتب الفقه والحديث، وحرر عدة فتاوى، وقد جمع تلميذ أحمد بابا مؤلفاته في مجموع مستقل، وكان بغيوغو في مدينة تنبكتو يوم نكبة العلماء ولكن لم يمسه ضرر من الجيش المغربي، وتوفي سنة 1593م بمدينة تنبكتو³.

3. عبد الرحمان السعدي:

هو الشيخ عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، و لد عام 1596م، درس بتبكتو، بدأ يهتم بالتاريخ منذ شبابه، فكان مطالعا أكثر من غيره على، ويعتبر كتابه تاريخ السودان من المصادر المهمة لتاريخ المنطقة السياسية والثقافية والاجتماعية، في عهد دولة سنغي، وما بعدها أي عهد الباشاوات، حيث أرخ لدولة سنغي الإسلامية من نشأتها إلى ما بعد سقوطها⁴.

4. الشيخ العاقب بن عبد الله الأنسمي الأغدسي :

ينسب الى مدينة أغاديس التي أسهمت في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في منطقة آير وخارجها إسهاما بارزا، وذلك بكثرة علمائها، وإنتاجها تهم العلمية.

وكانت النهضة العلمية في هذه المنطقة قد بدأت في آير أولا بمحيء الشيخ عبد الكريم المغيلي إليها عام 1479م الذي افتتح فيها مدرسة قرآنية للصغار، وأخرى للكبار لتعليم علوم الدين

(1) نيل الابتهاج، ص 601.

(2) نفسه، ص 602.

(3) جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة... مرجع سابق.

(4) محمد غوري، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة و النشر، الكويت، د ت، ص 533.

والعربية في تيغدا ، وبقي فيها فترة قبل مواصلة رحلته إلى كانو وكاتسينا ، وقد تتلمذ على يديه كثيرون، ومن أشهر طلابه الذين برزوا وساهموا في نشر الثقافة العربية الإسلامية الشيخ العاقب بن عبد الله الأنسمي الأغدسي ، الذي ذكره الشيخ أحمد بابا التمبكتي في نيل الابتهاج فقال : «فقيه نبيه زكي الفهم حاد الذهن وقاد الخاطر مشتغل بالعلم في لسانه حدة ، له تعاليق من أحسنها تعليقه على قول خليل وخصصت نية الحالف»¹ و اختصر الشيخ أحمد بابا هذا التعليق وسماه ” تنبيه الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف ” ، وله جزء بعنوان ” وجوب الجمعة بقرية أنوسامان، وألفه في الرد على الذين يرون أن قرية أنوسامان لا يصح إقامة الجمعة فيها لأن تعداد سكانها لا يسمح بذلك ، والشيخ يرى أنه يجب إقامة الجمعة فيها مع العدد الموجود في القرية . وقال الشيخ أحمد بابا : « فأرسلوه أي الكتاب إلى علماء مصر فصوبوه»²، أي صوبوا الشيخ العاقب فيما ذهب إليه في جواز إقامة الجمعة في قرية أنو سامان.

ومن إنتاجاته العلمية أيضا : الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمود ، وله أيضا أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير ، وقد أجاب فيها عن أسئلة السلطان الحاج أسكيا محمد ، وهذه المعلومات القليلة عن شخص العاقب تشهد له بالمكانة التي كانت له لدى العلماء ورجال السياسة في عصره³.

ومن علماء آير الذين ساهموا مساهمة فعالة في نشر الثقافة العربية والإسلامية تدريسا وتأليفا في تلك الفترة الشيخ شمس الدين النجيب بن محمد التيغداواي ، وقال أحمد بابا التمبكتي عنه: « أحد شيوخ العصر، معه فقه وصلاح، شرح مختصر خليل بشرحين : كبير في أربعة أسفار ، وصغير في سفرين» و له تعليق على كتاب المعجزات الكبرى للإمام السيوطي، وشرح العشرينيات للفازاري، وله أيضا الطريقة المثلى إلى الوسيلة العظمى⁴.

(1) المصدر السابق، ص 217.

(2) نفسه

(3) جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية، مرجع سابق.

(4) احمد بابا، مصدر سابق، ص 348.

المحور الرابع

نماذج من علماء غرب إفريقيا و إنتاجهم:

1. أحمد بابا التنبكتي:

أ.نسبه:

اسمه الكامل هو أبو العباس أحمد بن الحاج أحمد المسك بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت المسوفي، الصنهاجي، التنبوكتي، يعرف باسم بابا، ولقد ذكر مولده بنفسه في كتابه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج »، حيث قال فيه: « مولدي كما وجدته بخط والدي ليلة الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة ختام عام ثلاث وستين وتسعمائة(الموافق لـ 26 أكتوبر 1556م)، ونشأت في طلب العلم فحفظت بعض الأمهات وقرأت النحو على عمي أبي بكر الشيخ الصالح، والتفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان والتصوف وغيرها على شيخنا العلامة محمد بغيغ، ولازمته سنين وقرأت عليه جميع ما تقدم عني في ترجمتي، وأخذت عن والدي الحديث سماعا والمنطق، وقرأت الرسالة ومقامات الحريري تفقها على غيرهم، واشتهرت بين الطلبة بالمهارة على كلال وممل في الطلب⁽¹⁾»

ينتمي أحمد بابا إلى أسرة شهيرة تعرف ب « آل أقيت » ، أصلها من مدينة ولاتة في بلاد الحوض من شرقي موريتانيا، وكان يُعرف أيضا بأحمد بابا التكروري نسبة لبلاد التكرور⁽²⁾. نشأ أحمد بابا التنبكتي تحت حكم الأمير أسكيا (1549-1582م)، وكانت تنبكتو إذ ذاك من أهم مدن مملكة سونغاي. درس على شيوخ أسرته وعلى العالم الكبير محمد بغيغ الونكري كما مر ذكره في

(1) أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، الجزء الثاني، دراسة و تحقيق : محمد مطيع، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1421هـ/2000م، ص 281.

(2) ليلى الصباغ، أحمد بابا التكروري(963- 1036هـ/ 1556- 1627م) في موقع الكتروني:

حديث أحمد بابا عن نفسه، وحصل علما واسعا بفضل مطالعته وعلاقاته مع معاصريه حتى نال مكانة علمية متميزة⁽¹⁾.

لازم احمد بابا شيخه بغيغ أكثر من عشرين سنة، وقال بشأنه في نيل الابتهاج: «...لازمته أكثر من عشر سنين فقرات عليه بلفضي مختصر خليل و فرعي ابن الحاجب قراءة بحث و تحقيق و تحرير ختمتها عليه ، أما خليل فمرارا عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي و قراءة غيري، و حضرت عليه التوضيح كذلك لم يفتني منه إلا اليسير... و ختمت عليه الموطأ قراءة فختمت عليه مختصر خليل بقراءتي وقراءة غيري عليه نحو ثلاث مرات، و ختمت عليه الموطأ قراءة تفهم، وتسهيل ابن مالك قراءة تدقيق وبحث مدة ثلاث سنوات، وأصول السبكي بشرح المحلى ثلاث مرات قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بشرح السعد مرتين، وصغرى السنوسي مع شرح الجزيرية، وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق لها، ونظم أبي مقرر، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض بشرح السبتي، وكثيرا من تحفة الحكام لابن عاصم بشرحها لابنه، كلها بقراءتي. وقرأت عليه فرعي ابن حاجب قراءة بحث، جميعه، وحضرته في التوضيح كذلك لم يفتني منه إلا من الوديعه إلى الأفضية وكثيرا من المنتقى للباجي، والمدونة بشرح أبي الحسن الزرويلي، وشفاء عياض، وقرأت عليه صحيح البخاري نحو النصف، وسمعته بقراءتي، وكذلك صحيح مسلم كله، ودولا من مدخل ابن الحاج، ودروسا من الرسالة والألفية وغيرها، وفسرت عليه القرآن العزيز إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملا، وهو في سفر كبير، ومواضع أخرى منه، وباحثه كثيرا في المشكلات، وراجعت في المهمات، وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه، وأوقفته على بعض توالي في فسر به وقرظ عليه بخطه، بل كتب عني أشياء من أبحاثي، وسمعته يقول بعضها في درسه لإنصافه وتواضعه وقبوله بالحق حيث تعين»⁽²⁾.

فمن خلال ترجمة احمد باب لشيوخه بغيغ نلاحظ استعراض للأحوال الثقافية السائدة والبرامج الدراسية التي كانت سائدة في عصره أي تاريخ للحياة الفكرية في تنبكتو خلال القرن السادس عشر،

(1) جمال بامي، احمد بابا التنبوكتي، ضمن جريدة ميثاق الرابطة، جريدة الكترونية أسبوعية تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء، العدد 238، 2016/10/27، في موقع الكتروني: <https://www.maghress.com>

(2) احمد بابا التنبوكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، الجزء 2، ص 602.

كما نلاحظ ذلك التداخل بين الثقافة المغربية والإفريقية على مستوى مناهج التدريس المعارف، وهذا دليل على التأثير الثقافي والفكري للمغرب على إفريقيا جنوب الصحراء⁽¹⁾.

ب. محنته :

و لقد ذكر الزركلي العالم احمد بابا في كتابه الأعلام: « أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التنبوكتي السوداني، أبو العباس: مؤرخ، من أهل تنبكتو في إفريقية الغربية أصله من صنهاجة، من بيت علم وصلاح. وكان عالما بالحديث والفقه. وعارض في احتلال المراكشيين لبلدته (تنبكتو) فقبض عليه وعلى أفراد أسرته واقتيد إلى مراكش سنة 1002 هـ، وضاع منه في هذا الحادث 1600 مجلد، وسقط عن ظهر جمل في أثناء رحلته فكسرت ساقه، وظل معتقلا إلى سنة 1004 هـ، وأطلق فأقام بمراكش إلى سنة 1014 وأذن له بالعودة إلى وطنه. وتوفي في تنبكتو، وكان شديدا في الحق لا يراعي أحدا... وعلى إثر حملة أحمد المنصور الذهبي الشهيرة إلى بلاد السودان (الغربي)، ومنها حاضرة تنبكتو حيث بلاد صاحبنا أحمد بابا، امتحن في طائفة من أهل بيته بثقافتهم في بلدهم في شهر محرم سنة 1002 هـ على يد محمود بن زرقون، لما استولى السعديون على بلادهم تمبكتو، وجاء بهم أساري في القيود، فوصلوا مراكش أول رمضان من العام نفسه واستقروا مع عيالهم في حكم الثقافة إلى أن أحجم أمر المحنة فسرخوا يوم الأحد الحادي والعشرين لرمضان سنة 1004 هـ⁽²⁾.

كما تحدث ابو الناصري في "الاستقصا" عن نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك: « كان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم إلى أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغاربة وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطاتهم الأول، وكانت أذنتهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم

(1) جمال بامي، احمد بابا التنبوكتي، مرجع سابق.

(2) الزركلي(خير الدين)، الأعلام، قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980، الطبعة الخامسة، المجلد الأول، ص 123.

وربما وشي إليه بهم، فكتب إلى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريمهم إلى مراكش فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد ابن عمر بن محمد آقيت المدعو بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التأليف، وكان فيها أيضا الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر ابن محمد آقيت وغيرهما، وحملوا مصنفين في الحديد إلى مراكش ومعهم حريمهم وانتهت ذخائرهم وكتبهم»¹.

لقد نُفي أحمد بابا من تنبكتو باتجاه مراكش يوم السبت 18 مارس 1593م بأمر من قائد من جيش المنصور هو الباشا محمود بن زرقون الذي احتل تنبكتو، وأجبر على الإقامة الجبرية هناك لمدة 14 سنة بعيدا عن أهله، ولم يعد إلى تنبكتو إلا بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي رجع إلى تنبكتو سنة 1607م.

و بعد عودته الى تنبكتو و انقضت محنته، عاد احمد بابا الى نشاطه العلمي المعهود، حيث اخبرنا هو بنفسه في نيل الابتهاج، بانه بعد عودته وازدحم علي الخلق وأعيان طلبة تنبكتو، و لازموه، و قرأ عليه اشهر قضائها كقاضي الجماعة بفاس العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني وهو كبير ينيف على الستين سنة ، و قاضي مكناسة الرحالة المؤلف أبو العباس ابن القاضي ، وقرأ عليه مفتي مراكش الرجراحي وغيرهم، كما و اصبح يستفتى في كل النوازل التي يستفتى فيها غيره حتى اشتهر اسمه في البلاد من سوس الأقصى الى بجاية و الجزائر وغيرها. وقد قال له أحد طلبة الجزائر حل بمراكش ايام إقامته الجبرية اننا لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط².

ج. تلاميذه:

من تلاميذ الإمام أحمد بابا المشاهير نذكر، ابا العباس ابن القاضي صاحب جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس والغساني، و أبو عبد الله محمد بن يعقوب الآسي المراكشي الذي لازمه كثيرا وأخذ منه الإجازة؛ والحاج أحمد بن الحاج محمد فهدي التواتي الذي كان

(1) الناصري (أبو العباس)، الاستقصا ، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص ص 129 . 130 .

(2) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص 602.

شديد القرب منه إذ لازم ليالي وأياما، وشهورا وأعواما، وقد أجازته إجازة مطلقة من غير تقييد. و
تلمذ عليه أحمد بن محمد بن داود الجزولي التلمي وهو من أبرز رجال العلم بسوس في عصره¹.

د. انتاجه العلمي:

أما عن مؤلفات أحمد بابا فقد قال عنها هو بنفسه : «وألفت عدة كتب تزيد على أربعين
تأليفا: كشرحي على مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح ممزوجا محرراً، وحواشي على مواضع
منه، والحاشية المسماة من الرب الجليل في مهمات تحرير خليل يكون في سفرين، وفوائد النكاح على
مختصر كتاب الوشاح للسيوطي»² وغيرها.

كما وضع على مختصر خليل من الزكاة إلى أثناء النكاح مؤلفا في جزئين سماه "المقصد
الكفيل بحل مقفل خليل"، وحاشية عليه سماها من الجليل في فتح مهمات خليل، كما كتب فتح
الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، والزند الوري في مسألة تخير المشتري، وتنبية الواقف على تحرير
نية الحالف، كما الف وتعليقا على أوائل ألفية ابن مالك سماه النكت الوفية بشرح الألفية، وله أيضا
نيل الأمل في تفضيل النية على العمل، وغاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة وهو
في كراسين، وآخر سماه "النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة، وما رواه الرواة في مجانبة
الولاية، وشرح الصغرى للسنوسي، ومختصر ترجمة السنوسي، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، و "كفاية
المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" اختصر فيه "النيل"، وخمائل الزهر فيما ورد من كفيات الصلاة
على سيد البشر، والدرر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير، وسؤال وجواب في جواز الدعاء باللهم
، وشرح الصدر وتنوير القلب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من ذنب، والكشف والبيان
لأصناف مجلوب السودان، المناقب الفاخرة في أسماء سيد الدنيا والآخرة، والمنهج المبين في شرح
حديث أولياء الله الصالحين، والبدور المسفرة في شرح حديث الفطرة، وفتح الصمد الفرد في معنى محبة
الله تعالى للعبد، نزول الرحمة في التحديث بالنعمة، ودرر الوشاح في فوائد النكاح وهو مختصر لكتاب
الوشاح للسيوطي، ونيل المرام ببيان حكم الأقدام على الدعاء لما فيه من إيهام وهو مأخوذ من
مسودة تأليفه فتح التقدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير، وتحفة الفضلاء ببعض
فضائل العلماء ومختصره مرآة التعريف في فضل العلم الشريف، ودرر السلوك بذكر أفاضل الخلفاء

(1) جمال بامي، احمد بابا التنبوكتي، مرجع سابق

(2) نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص614.

الملوك، وأجوبة الأسئلة المصرية، وله أسئلة في المشكلات¹. وقد وردت معظم هذه المؤلفات في "فهرسة المراكشي، وبعضها الآخر ذكر في كتاب "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" للعلامة الولاقي.

ه. اجتهاداته:

من أشهر الاجتهادات العلمية لأحمد بابا التنبكتي فتواه في شأن استرقاق المسلمين من بلاد السودان. فقد وجه بعض المستفتين من بلاد توات رسالة إلى الشيخ أحمد بابا التنبكتي يستفتون فيها عن جواز تملك العبيد المجلوبين من البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، التي تقرر إسلام أهلها كبلاد برنو وعفنو وكانو وكاغو ونحوها؛ وقد أفرد أحمد بابا الجواب برسالة خالف فيها رأي الإمام الونشريسي (توفي 914هـ) ختمها بقوله، هذا آخر ما تيسر من "معراج الصعود إلى نيل مجلب السود"، وإن شئت فسمه "الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان"².

حيث بين أحمد بابا أن أهل هذه البلاد مسلمون، أسلموا بلا استيلاء أحد عليهم. ، ومنهم قدماء في الإسلام كأهل مالي أسلموا في القرن الخامس، وقد تصدى الشيخ أحمد بابا لتوضيح المسألة وملاساتها الشرعية والتاريخية، إذ ورد في متن الرسالة التي بعثت إلى الشيخ أحمد بابا: «وقولكم وقد أخبر بعض قضاة السودان أن الإمام الذي استفتحهم وهم كفار اختار إبقاءهم.. ولا يخفى أنه يترتب على التسليم بهذه الرواية التاريخية جواز استرقاق أهل هذه البلاد، وإن حصل إسلامهم بعد ذلك. لقد خالف أحمد بابا هذه الرواية، فهي -في نظره- دعوى بلا دليل، ومما قاله أحمد بابا في رد هذه الشبهة: «واسألوا هذا القاضي السوداني من هذا الإمام؟ وفي أي وقت فتح بلادهم؟ وأية بلاد فتح؟ يعين لكم ذلك كله، وما أقرب كلامه لعدم الصحة، فلو بحثتم الآن لا تجدون أحداً يخبركم بحقيقة ما قال. فما انبنى على كلامه لا يعتبر والله تعالى أعلم»³.

(1) جمال بامي، احمد بابا التنبكتي، مرجع سابق

(2) يندرج موضوع كتاب معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود، أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، في إطار نوازل الاسترقاق الخاصة بأهل السودان الغربي جنوب الصحراء، في وقت أضحت فيه هذه البلاد مصدرا لسوق العبيد نحو العالم الجديد، وموردا اقتصاديا مهما للمغرب الأقصى في العهد السعدي.

(3) احمد بابا التنبكتي، معراج الصعود في حكم مجلوب الأسود، مخطوط مصور.

ويرتب الفقيه أحمد بابا على هذه المعطيات التاريخية والاستنباطات الشرعية والمقاصدية حكماً في غاية الأهمية، وهو أن كل من عرف أنه من بلاد السودان التي أسلم أهلها، وذكر أنه من تلك البلاد، فيحلى سبيله، ويحكم له بالحرية المطلقة، حيث ان أحمد أطلق هذه الفتوى الجريئة في أوج عظمة الدولة السعودي.

توفي رحمه الله في تنبكتو بعدما عاد إليها من منفاه بمراكش بعد 19 سنة، حيث توفي فيها بتاريخ إبريل 1627م.

2. الشيخ محمد بن محمود بن أبي بكر التنبكتي المعروف ببغيع (باكاويكو):

كان هذا العالم أول متن حاز على لقب شيخ الإسلام في منطقة غرب إفريقيا، وكان من أشهر علماء غرب إفريقيا في العالم الإسلامي، يصفه تلميذه أحمد بابا التنبكتي بقوله: «شيخنا و بركتنا الفقيه العالم المتفنن الصالح العابد الناسك المفتي، من خيار عباد الله الصالحين و العلماء و العاملين مطبوعا على الخير و حسن النية و سلامة الطوية والانطباع على الخير و اعتقاده»¹.

درس بغيغو علوم العربية والفقهاء على أبيه القاضي محمود ثم رحل للمشرق وحضر مجالس العلم بمصر حيث تتلمذ على أشهر العلماء من أمثال: الناصر اللقاني، ومحمد البكري، وبعد الحج رجع إلى السودان الغربي وتفرغ للعلم وطلابه، وتوفي سنة 1593م، وقال عنه أحمد بابا "كان طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتدئ ولا من بليد، أفنى فيه عمره مع تشبته بجوائح العامة وأمور القضاء²، درس بغيغو علوم العربية والفقهاء على أبيه القاضي محمود ثم رحل للمشرق وحضر مجالس العلم بمصر حيث تتلمذ على أشهر العلماء من أمثال الناصر اللقاني، و محمد البكري، وبعد الحج رجع إلى السودان الغربي وتفرغ للعلم وطلابه، وتوفي سنة 1593م، وقال عنه أحمد بابا: « كان

(1) نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص 600.

(2) جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية (غرب إفريقيا نموذجاً)، موقع الكتروني:

[/http://africanulama.org/blog/2017/09/09](http://africanulama.org/blog/2017/09/09)

طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتدئ ولا من بليد، أفنى فيه عمره مع تشبته بجوائح العامة وأمور القضاء، إذ لم يصيبوا عنه بديلا و لا نالوا له مثيلا»¹.

ويضيف أحمد بابا في ترجمته : «لقد صار في آخرة الحال شيخ وقته في الفنون لا نظير له لازمته أكثر من عشر سنين، فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل وابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم، وحضرته كثيرا في المنتقي والمدونة بشرح المحلى ثلاث مرات وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحها»، وختم الترجمة بقوله: «وهو شيعي وأستاذه ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه»².

إن بغيوغو إلى جانب دروسه مؤلفا ومحشيا على أمهات كتب الفقه والحديث، وحرر عدة فتاوى، وقد جمع تلميذ أحمد بابا مؤلفاته في مجموع مستقل، وكان بغيوغو في مدينة تنبكتو يوم نكبة العلماء ولكن لم يمسه ضرر من الجيش المغربي، وتوفي سنة 1593م بمدينة تنبكتو³.

3. عبد الرحمان السعدي:

هو الشيخ عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، و لد عام 1596م، درس بتبكتو، بدأ يهتم بالتاريخ منذ شبابه، فكان مطالعا أكثر من غيره على، ويعتبر كتابه تاريخ السودان من المصادر المهمة لتاريخ المنطقة السياسية والثقافية والاجتماعية، في عهد دولة سنغي، وما بعدها أي عهد الباشاوات، حيث أرخ لدولة سنغي الإسلامية من نشأتها إلى ما بعد سقوطها⁴.

4. الشيخ العاقب بن عبد الله الأنسمي الأغدسي :

ينسب الى مدينة أغاديس التي أسهمت في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في منطقة آير وخارجها إسهاما بارزا، وذلك بكثرة علمائها، وإنتاجها تم العلمية.

وكانت النهضة العلمية في هذه المنطقة قد بدأت في آير أولا بمحيء الشيخ عبد الكريم المغيلي إليها عام 1479م الذي افتتح فيها مدرسة قرآنية للصغار، وأخرى للكبار لتعليم علوم الدين

(1) نيل الابتهاج، ص 601.

(2) نفسه، ص 602.

(3) جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة... مرجع سابق.

(4) محمد غوري، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة و النشر، الكويت، د ت، ص 533.

والعربية في تيغدا ، وبقي فيها فترة قبل مواصلة رحلته إلى كانو وكاتسينا ، وقد تتلمذ على يديه كثيرون، ومن أشهر طلابه الذين برزوا وساهموا في نشر الثقافة العربية الإسلامية الشيخ العاقب بن عبد الله الأنسمي الأغدسي ، الذي ذكره الشيخ أحمد بابا التمبكتي في نيل الابتهاج فقال : «فقيه نبيه زكي الفهم حاد الذهن وقاد الخاطر مشتغل بالعلم في لسانه حدة ، له تعاليق من أحسنها تعليقه على قول خليل وخصصت نية الحالف»¹ و اختصر الشيخ أحمد بابا هذا التعليق وسماه ” تنبيه الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف ” ، وله جزء بعنوان ” وجوب الجمعة بقرية أنوسامان، وألفه في الرد على الذين يرون أن قرية أنوسامان لا يصح إقامة الجمعة فيها لأن تعداد سكانها لا يسمح بذلك ، والشيخ يرى أنه يجب إقامة الجمعة فيها مع العدد الموجود في القرية . وقال الشيخ أحمد بابا : « فأرسلوه أي الكتاب إلى علماء مصر فصوبوه»²، أي صوبوا الشيخ العاقب فيما ذهب إليه في جواز إقامة الجمعة في قرية أنو سامان.

ومن إنتاجاته العلمية أيضا : الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمود ، وله أيضا أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير ، وقد أجاب فيها عن أسئلة السلطان الحاج أسكيا محمد ، وهذه المعلومات القليلة عن شخص العاقب تشهد له بالمكانة التي كانت له لدى العلماء ورجال السياسة في عصره³.

ومن علماء آير الذين ساهموا مساهمة فعالة في نشر الثقافة العربية والإسلامية تدريسا وتأليفا في تلك الفترة الشيخ شمس الدين النجيب بن محمد التيغداواي ، وقال أحمد بابا التمبكتي عنه: « أحد شيوخ العصر، معه فقه وصلاح، شرح مختصر خليل بشرحين : كبير في أربعة أسفار ، وصغير في سفرين» و له تعليق على كتاب المعجزات الكبرى للإمام السيوطي، وشرح العشرينيات للفازاري، وله أيضا الطريقة المثلى إلى الوسيلة العظمى⁴.

(1) المصدر السابق، ص 217.

(2) نفسه

(3) جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية، مرجع سابق.

(4) احمد بابا، مصدر سابق، ص 348.